الفصل الثالث

غريغوري السابع . وهنري الرابع
والصراع على التتويج

حدث زلزال هز مدينة روما بعد وقت قصير من اعتزال غريغوري السادس في سوتري وتنصيب بابا جديد، ومع أن الزلازل والفيضانات والكوارث الطبيعية ليست نادرة الحدوث في روما، إلاَّ أن رجال القرون الوسطى فسروها بأنها صوت الله الذي يقول بلهجة رهيبة ناهية، أنه لا يوافق على أعمال الإنسان الحالية، فقد ترك كل من كان في سوتري تلك المدينة بضمائر ملبدة، إذ قام ملك شاب بإدانة يوحنا جراتيان، المبجل المحترم الذي أثار إذلاله، وهو الراهب المتواضع شفقة الكثيرين الذين ذرفوا الدموع حزناً وأسى، فقد اتهم كل من حضر ذلك المجمع، نفسه، فقد استسلم لمشيئة وبهاء هنري الثالث الشاب، وللقصف والمرح الصاخب في الاحتفالات المهيبة المتألقة البراقة أثناء حفلات التتويج التي اشترك بها جميع الرومان، ولم يهدئ كل هذا وخز ضمائرهم، والآن ها هو الرب قد هز رأسه منذراً مهدداً بغضبه وعدم موافقته، وظهر أن العناية الإلهية أقوى، وأكثر إقناعاً من قوة البشر لا بل حتى من قوة الملك.

لقد ثبت أن رجال اللاهوت الذين احتجوا على انتخاب بابا جديد أثناء حياة غريغوري هم على حق، فالقرار الذي اتخذ في سوتري لم يتفق مع روح الشريعة المسيحية، وذلك لأن غريغوري لم يعزل من منصبه، فقد اعتزل البابوية بمحض إرادته، وكان رجلاً ساذجاً مسناً نقياً شديد البراءة، فضّل أن يعترف بذنوبه على أن يظل متربعاً على الكرسي الرسولي، والشك ينهش قلبه، ولا يمكن أن نعده سجيناً حتى وهو في منفاه، فهو لم يسافر إلى ألمانيا بحراسة الجنود، وبرفقة بطانة الإمبراطور مثلاً، بل قام

برحلته المضنية المتعبة، ومعه جماعة صغيرة من أتباعه وخدمه وقريبه هلد براند، ولم يذهب إلى آخن حيث بلاط الإمبراطور، بل إلى كولون في حوض الراين، فالكاتدرائية التي تجتذب السياح هناك، لم تكن قد بنيت بعد، ولكن كان هنالك مجموعة من الكنائس الجميلة الصغيرة مثل كنيسة القديس جيريون. وماريا أم لاش وكنيسة الرسل (هدمت جميع هذه الكنائس في الحرب العالمية الثانية) وهذه كانت هي الصور التي واجهت غريغوري، وهلد براند، وكان عليهما أن يرياها ويشتركا في الأمجاد الهادئة لتلك المرحلة الرومانسيكية التي رأت بالمسيح الملك والكنيسة رمزاً للسلطة الروحية والملكية متفوقة في صفائها، قبل أن تخلق وتسمو معلنة انتصاراتها، المتجسدة في تلك الأبراج المستدقة الشامخة فوق الكاتدرائيات القوطية، وإلى كولون هذه هرع هذان الرجلان، وكانت كولون عند ذلك معقلاً من معاقل دير كلوني في ألمانيا، وإن قدوم اثنين من أسرة بيرليوني المعروفة بدعمها المادي لحركة الإصلاح وبنشاطها في التحول إلى المسيحية، كان أمراً يستوجب الترحيب الشديد من قبل رهبان وأساقفة الراين.

ولكن ما دام المنفى اختيارياً فلماذا اختار الرجلان ألمانيا؟ وهي البلاد التي عامل إمبراطورها البابا تلك المعاملة الخشنة، ولماذا لم يذهبا إلى مونتي كازينو، أو إلى دير كلوني نفسه؟ إن الجواب على هذا السؤال يتعلق بشخصية هلدبراند الرجل الذي قدر له أن يقود ويؤثر في الشؤون الكنسية في العالم المسيحي في القرون الوسطى في الأعوام الخمسة والثلاثين القادمة، وهو لربما يعد أكبر شخصية فعالة، مؤثرة في العالم المسيحي قاطبة، وبالتأكيد الشخصية المهيمنة في ذلك، وكان يدعى على سبيل السخرية «الرجل الصغير» لأنه بالحقيقة كان ضئيل الجسم قصيراً، ومظهره غير جذاب، يتصف بالبشاعة: داكن لون البشرة، وبالاختصار كان بيرليونياً، ويمكننا أن نجد وصف ثلاثة بابوات بيرليونيين في الوثائق المختصة بالعصور الوسطى، إذ نجد أنهم جميعاً متشابهين أشد شبهاً باليهود الشرقيين منهم بالمسيحيين الغربيين (بالمناسبة أطلقت هذه الأوصاف على هلدبراند ليس

بلسان أعدائه بل من قبل رئيس دير كلوني)، وإنه لأمر يدعو للدهشة أن رجلاً بهذه الصورة من البشاعة، وعدم المهابة أو الجلال، يصبح له ذلك النفوذ وتلك الأهمية، مما أثار موجة من الدهشة والإعجاب، ولما كان متهماً أيضاً بحيازته قوى شيطانية كالسحر الأسود، فهل حقيقة كان هذا الرجل يستعمل الحيلة والخداع في أعماله؟ إن الأمر الثابت أنه كان بعيداً عن كل ذلك، فقد كان يعمل طبقاً لتخطيط أسرة تسعى لمجد مؤثل، فقد كان بندكتوس باروخ قد بلغ الآن من الكبر عتياً، ولم يعد باستطاعته أن يقوم بأي تخطيط أو تمثيل، لكن ابنه ليودي بندكتوس، أصبح زعيم الأسرة، وكان أقدر من والده بكثير، وكانوا لا يزالون يدعونه (ليو اليهودي)، وغدا الآن جزءاً لا يتجزأ من حياة روما السياسية والدينية، فلم يكن شعبياً أو مقبولاً ولكن الأسر النبيلة القديمة كانت تتحمله على مضض.

لقد اختار هلدبراند ألمانيا وهي بلاد الإمبراطور الذي لا يمكن للسياسة البابوية أن تستقيم أمورها وتنفذ دون وجوده، ولهذا فهو سينقل معركة استقلال البابوية إلى ألمانيا، إنما ذلك سيكون في المستقبل البعيد حين سيصبح أحد الأباطرة خصمه اللدود، وذلك الوقت لم يأت بعد، فلم يكن هنري ذلك الشاب القوي التقي، الذي كرس نفسه لفكرة الإصلاح، يصلح لأن يكون هدفاً لأي هجوم، وكان قد نجح تواً في انتخاب بابا ألماني، وسوف يتبعه آخرون (بالحقيقة لقد تتابع على عرش البابوية خمسة ألمان جميعهم قصيرو العمر، إذ أن الواحد منهم حكم مدة تقل عن السنة، وبعضهم بضعة أسابيع أو أشهر، وأطولهم حكماً مكث أقل من خمس سنوات، ولكن طبعاً لم يكن هلدبراند يستطيع أن يتنبأ بذلك)، ولم يكن هلدبراند متضلعاً بالعلوم اللاهوتية، بقدر ما كان سياسياً بارعاً عملياً، لذلك وجد من الحكمة أن ينشئ علاقات ودية مع الإمبراطور، حتى يصبح ذا تأثير فعال في انتخاب البابوات، إذ أنه صمم أن ينغمس في صميم السياسة البابوية، ومن المحتمل أنه انضم إلى رهبنة دير كلوني ولكن بشكل روتيني تعوزه الحماسة، وربما كان بشكل رمزي إذ لم يثبت انتسابه لهذا الدير، ولكنه حصل على بركته، وهذا يعد أمراً كافياً،

وإنه لأمر مثير أن نرقب عن كثب أسرة بيرليوني وهلدبراند في مواقفهم تجاه الإمبراطور الألماني، لقد كانوا من الاكليروس أي من الحزب المعادي للإمبراطور، لذلك كان من الواضح أنهم أيدوا موقف البابا، بينما تبع النبلاء القدماء الإمبراطور، هذا ووضحت الخطوط الحزبية في نظرية تطور البابوية واستقلالها التي كان هلدبراند هو المنظِّر والباني الأول والنصير الأساسي لها، لكن تتابع حكم البابوات الخمسة الألمان (1047 ـ 1058) أوقف مؤقتاً هذا التيار، لأنه ما دام أن الإمبراطور هو الذي انتخبهم، وما دام أن الرومان قد ثبتوهم فلا مجال لهم أن يسلكوا سلوكاً فيه أي مساس بسلطة الإمبراطور، مع أنه وجد بينهم من لم تنقصه الشجاعة والذكاء والفطنة لتفهم روح العصر التي تتلخص في فكرة الحرب والنضال لنيل الاستقلال البابوي، الذي اتخذ ذلك الاسم الرنان، وهو النزاع على التتويج، فأسرة البيرليوني تدعمها أسرة الفرانجيباني (غيرت موقفها بعد حوالي ثمانية عقود، ولكنها بقيت مخلصة خلال بابوية هلدبراند وما بعد ذلك)، كانتا هما العمود الفقري للمقاومة الرومانية ضد الهيمنة الألمانية، وحافظت الأموال والدعاية على دوام توقد نيران حماس «الرأي العام» واضطرابها بين الشعب الروماني، إنما كان من الواضح أن تلك الستراتيجية السائدة المؤسسة على التقدير الفاتر للأحوال السياسية المتغيرة، كانت عاملاً من عوامل تأييد الإمبراطور مؤقتاً والانتظار حتى حلول اللحظة الحاسمة عندما يحين وقت الضربة القاصمة والنصر.

وقضى هلدبراند معظم وقته في خدمة يوحنا جراتيان البيرليوني بإخلاص، وكان يوحنا محتفظاً بلقب غريغوري السادس، وكذلك احتفظ بخاتم الرسول بطرس، ولم يتخل عنه، وظل الكهنة والأساقفة يقبلون ذلك الخاتم، ولكن لم يدم هذا الحال طويلاً، لأن غريغوري توفي عام 1048 في هامبورغ (ولا نعلم ماذا كان يعمل هناك، إذ ربما ذهب إلى هامبورغ في شؤون تجارية لأسرة بيرليوني إلى ذلك المرفأ، ولا يُعرف مكان قبره ولم يُحفظ له شاهد قبر)، وورث هلدبراند ثروة كبيرة من قريبة، فقد كان هذا الرجل

البيرليوني راضياً تمام الرضا عن هلد براند، وكان من الطبيعي لرجل الدين البيرليوني أن يترك جميع ثروته للرجل الذي تأكد أنه سيستمر في سياسة إصلاح البابوية، وقد انتقد هلدبراند فيما بعد لحيازته تلك الثروة التي اكتسبت بأساليب الربا، ولكن الحقيقة أن المال كان العامل المحرك في مجرى حياته وسيرته، وعلى كل حال فقد ارتاح هلدبراند لتخلصه من ذلك العبء الذي كان يتحمله برحابة صدر وهو الاعتناء برجل مسن مريض صعب الطباع، فأصبح الآن حراً في متابعة أهدافه السياسية، وتوفي في ذلك الحين سودجار أسقف بامبرغ، وهو البابا الذي انتخب بشكل جليل ميمون، وسمي بكلمنت الثاني وذلك قبل التتويج العظيم للإمبراطور هنري، ومن المحتمل أنه مات مسموماً، وقد أعيد جثمانه إلى كاتدرائيته السالفة، وبذلك كان البابا الوحيد الذي دفن في ألمانيا، وكان خليفته نبيلاً ألمانياً تبنى اسم دامسكوس الثاني، لم يدم حكمه أكثر من ثلاثة وعشرين يوماً لم يكد يتعرف خلالها على ذلك المنصب العالي الذي رفع إليه، وقيل إنه توفي مسموماً أيضاً، وقد وضح أنه ليس بأمر صحي أن يكون البابا ألمانياً في تلك الأيام، ومن المحتمل أن يكون هلدبراند قد وصل إلى آخن في هذا الوقت، واتصل بالإمبراطور، وبقدرة قادر وبأسلوب ليس باستطاعتنا معرفة كنهه، نجح ذلك الرجل قبيح الوجه، غير المهيب الطلعة (ولكن غير المتغطرس) في أن يصبح أحد مستشاري الإمبراطور الحميمين، على الأقل في الشؤون الكنسية وبصورة أهم في الشؤون الرومانية، لأن هلدبراند كان من ناحية عملية رومانياً صميماً، وبالمناسبة إنه لأمر له مغزاه وأهميته أن لا يعرف أحد الظروف الدقيقة لمولده، وكتب يوحنا وليم باودن، وهو أحد الذين كتبوا سيرة حياته قائلاً: «إن تاريخ ميلاده غير مسجل، ولكن من المحتمل أنه ولد بين عامي 1010 و1020، وقد عرف هذا من النتف المختلفة المعروفة من حياته، وليس من الواضح أيضاً، أين رأى النور لأول مرة، ولا يعرف الكثير عن والديه وأصله، ولكن من المحتمل أن يكون مكان مولده هو مدينة سونا على الحدود الجنوبية لتوسكانا، ولكن أينما كان مولده فالجميع متفقون أنه قد حضر إلى روما وهو طفل صغير أو شاب صغير»، ثم استطرد باودن فقال: «وسرعان ما نقل من بيت

والديه إلى مكان مناسب أعدّ له لكي يستعد للأعمال المرهقة والواجبات التي تنتظره، ثم رجع إلى روما»، ونحن نعتقد أنه أحد أفراد أسرة يهودية من المتحولين إلى المسيحية، وهي أسرة بيرليوني، وذلك إما عن طريق زواج أمه وذلك حسب رأي ريجينالد بول، أو بالدم حسب رأي بترو فيديل، وعلى كل حال فقد كان رومانياً، وقد عرف الرومان من النبلاء إلى الغوغاء والرعاع، وجميع صور وأشكال الرأي العام، الصالح والطالح، وكان على علم بعقلية هؤلاء الرومان السذج الحساسين، وكل مدارسهم والضواحي في أجزاء المدينة المتعددة ـ خصوصاً تراستفيري التي عرفها أكثر من الجميع، وكان يعرف أمزجتهم وردود فعلهم تجاه أي حادث سواء كان سياسياً أو دينياً، وفوق كل شيء عرف الكوريا، وإنه لأمر خارق للطبيعة أن نعرف كيف استطاع أن يحصل على تلك المعرفة الجمة، وهو في سنه، على الرغم من حقيقة أن رجال العصور الوسطى كانوا ينهون تدريبهم الجامعي وهم في سن الثامنة عشرة، ومع ذلك فيبقى هلدبراند أحد النوابغ العظام في جميع الأزمنة، فقد كان يفاوض ويناور ويخطط ويوجه ويستخدم الناس والظروف بمحض إرادتهم، ويظل مع ذلك مسيطراً على كل شيء، فسهولة حركة ذهنه والقسوة، وعدم الرحمة التي أظهرها في ملاحقة أهدافه وتوطيد عزمه تجاه هدف مفرد يستقطب كل قواه وفوق كل شيء إخلاصه الكلي للكنيسة ومثلها العليا، كل ذلك يجعله في مصاف أعاظم الرجال في التاريخ، وقد ظن أعداؤه أن به مساً من الشيطان، والحقيقة أنه لم يكن ملاكاً بل رجلاً شاباً له هدف، وقد ادعى أنه قد ذهب إلى ما وراء جبال الألب دون رغبة حقيقية، وذلك عندما رافق قريبه غريغوري لحراسته، ولكن هذا الكلام يعد نوعاً من التواضع المبالغ فيه، والحقيقة إن عبارة «ما وراء الألب» التي كان يعنى بها ألمانيا، ما هي إلاّ المنطقة التي كان ينتمي إليها، وهي التي أحسن الاستفادة منها.

لقد توفي البابوات الأول الذين نصبهم هنري الثالث ولم تكن ظروف وفاتهم لتشرف هنري، أو لتجعل مركزه أكثر جاذبية أو شعبية، ولا عجب إذن أن رفض بعض الأساقفة الألمان هذا المركز عندما طلب منهم شغله، وبناء على نصيحة هلدبراند توجه

الإمبراطور بالطلب إلى بورنو أسقف تول لإشغال هذا المنصب، وكان بورنو صديقاً حميماً ومستشاراً لـهلد براند، وقد جمع عدة صفات دينية وعسكرية مما جعله شخصاً ثميناً ونادراً، وثبت فيما بعد أن تلون معارفه وتعددها كان سبباً في تعطيلها، وإبطال مفعولها، وعلى كل حال فقد قبل هذا المنصب، و أعلن الملك للملأ من النبلاء والاكليروس أن بورنو أسقف تول سيصبح البابا ليو التاسع 1049 ـ 1054م، وقدر لهذا البابا أن يصبح واحداً من أعظم البابوات إن لم يكن أكثرهم مأساوية.

إن قضية هذا التعيين كانت أمراً بسيطاً بالنسبة إلى هنري، فقد كان على ليو الذي نصبه الملك أن يذهب على رأس وفد كبير من الأساقفة وعلماء اللاهوت، وبعض الوحدات العسكرية إلى روما حيث ينصب هنالك رسمياً بكل جلال ووقار حبراً أعظم بصفته صديق الإمبراطور الموثوق به، والرجل التقي الورع ذو الشخصية الفذة، أما هلدبراند فلم تكن القضية بهذه السهولة في نظره، فقد كان على صلة وثيقة بالبابا الجديد قبل تنصيبه، وأصبح الآن لا يفارقه ليلاً ونهاراً، وقد حاول خلال عدة أيام أن يقنعه بأهمية مظاهر الدخول إلى روما، وأن يعد هذا الدخول خطوة من الخطوات الهامة في مجرى حياته وعمله، فقد كان معروفاً أن الألمان لم تكن لهم شعبية في روما، وإن وجود الألمان في روما، كان يعد أمراً مستهجناً إن لم يكن مرفوضاً، فوجود أية وحدة عسكرية ألمانية في روما، كان يعد رمزاً للقوة الاستعمارية البغيضة الذميمة والمهينة على أقل تقدير، الأمر الذي طالما عانى منه الرومان الكثير منذ أيام شارلمان، فكان قيام الغوغاء في روما، بالتحرك في الشوارع أمراً فظيعاً لا يستطيع البابا بموكبه وأرديته الكهنوتية التي أصبحت مألوفة لدى هؤلاء، أن يؤثر عليهم ويجعلهم يتمتعون بالرزانة فيخضعون مذعنين، وفوق ذلك كان هنالك تلك الاتفاقية التي لا تزال سارية المفعول، وهي أن يشترك الرومان مع الإمبراطور في انتخاب البابا العتيد، وأن يكون لكل منهما صوت في انتخاب البابا الجديد، صحيح أن هنري استطاع أن ينصب البابا الذي يريده بسهولة أثناء تلك الأيام المضطربة الصاخبة، في أيام بندكت، وسلفستر

وغريغوري، وقد قدم كلمنت للرومان الذين وافقوا على ذلك، مع أن هذا العمل لم يكن قانونياً ولا متفقاً مع التقاليد الكنسية، ولكن الرومان في هذا الوقت لم يعودوا يهتمون بأي شيء عدا النظام، مع شيء من اللياقة والحشمة، ولهذا فلا عجب أن يتذكروا في هذا الوقت تلك الاتفاقية التي تدعو إلى اشتراك الإمبراطور والرومان معاً في انتخاب البابا، إذ أن قوانين انتخاب البابا لم تكن قد كتبت بعد (سوف تكتب بعد مدة وجيزة)، وهكذا أصبح فرض أي بابا على الرومان إهانة وأية إهانة.

كان موطن قوة هلدبراند وميزته يكمن في قدرته على إقناع أي شخص متردد، لكن بورنو لم يكن بحاجة إلى الإقناع، فقد كان على علم بالتحدي، لا بل حتى بالخطر الكامن تحت منصب البابوية، فجثتا ذينك البابوين المسمومين لم تبردا بعد، وهما كلاهما كانا مواطنين صالحين، وقد حضر بورنو قداس جنازتيهما في بامبرج، ولهذا أدرك أن الوضع جدي وخطير، ولها أصغى لهلدبراند باهتمام، وقبل نصيحته، وهكذا ظهر البابا أمام أسوار روما بمظهر غريب، فلم يكن مرتدياً الألبسة البابوية، بل لم يكن يرتدي حتى ملابس رجل نبيل، أو حتى كاهن، بل ظهر كرجل مذنب تائب، يرتدي مسوح الرهبان، عاري القدمين، وقرع أبواب روما راجياً السماح له بالدخول ليس كمجرد حاج من الحجاج، بل كرجل مثقل بالذنوب، مستعد لخدمة الكنيسة كحبر أعظم، وعندها فتح الرومان الأبواب، ودخل البابا وبطانته غير المسلحة إلى المدينة، وكان في عداد هذه البطانة رجل روماني قصير القامة، نحيف الجسم، أسمر اللون، من آل بيرليوني، ويقول المؤرخ غريغوري: «لقد اصطحب بورنو معه هلدبراند وهو رجل يزيد في أهميته على الملك أو الإمبراطور، وهو يرتدي مسوح الرهبان وكان لا يزال مجهولاً، ولكن قدّر له أن يصبح عبقري الكنيسة الفذ» وها قد رجع هلدبراند إلى وطنه، وإلى مدينته، وإلى الرومان، وبالطبع إلى أسرته التي أصبحت تسيطر سيطرة تامة على تراستفيري، وأصبحت لها معاقلها وجسورها وقلاعها وجنودها، وأصبحت

قلعة سانت انجيلو الآن تحت سيطرتها، ولذلك ازدادت سيطرة وقوة ليو دي بندكتو ووصلت إلى الأوج، وظل إخلاص الأسرة وولاؤها للكنيسة كما كان عشية ذلك اليوم قبل عشرين عاماً، في كنيسة القديسة مريم في تراستفيري.

كان باروخ لا يزال حياً عند عودة هلدبراند، ولكنه كان على فراش الموت، وقد مات فعلاً عام 1051م، وكتب غريغوري: مع أنه لم يبق أي أثر لقبر أي بابا كان في تلك الأيام، إلا أن قبر ذلك اليهودي باروخ، حفظ بعناية، في داخل الأروقة المعمدة، المسقوفة المبنية حول كنيسة سان باولو خارج أسوار روما، هنالك ناووس كبير من الرخام يرجع في تصميمه إلى أسوأ مرحلة من مراحل الفن الروماني، لكنه مزين بتماثيل أبوللو، ومارسياس وعرائس الشعر، وهذا الناووس هو قبر البيرليوني الذي نقشت عليه نقوش يهودية أصيلة تتبجح بالقول: «إنه كان رجلاً بارزاً بسبب أمواله وذريته»، والحقيقة أنه قد خلف حقاً ذرية كثيرة العدد من الأبناء، وكانت ثرواتهم غير عادية، حتى أن أحدهم أصبح «بابا» وآخر نبيلاً من النبلاء الرومان، وادعى ثالث أن ابنته قد تزوجت روجر ملك صقلية، وقد دفن آخرون من تلك الأسرة في كنيسة القديس نقولا في كارسيري Carcere، وفي سان آنجيلو، وبرسكاريا، وقبل أن تهدم هذه الكنيسة، رأيت عياناً رسماً من الفسيفساء لرنك من رنوك آل بيرليوني يمثل أسداً مرسوماً بشكل مربعات داخل ثلاثة قضبان، والحقيقة أن هذا القبر ليس قبر باروخ (الذي دثر قبره الآن)، بل هو قبر بطرس بن ليو، وهو حفيد باروخ، وقد نقلت هذه الفقرة لأن هذه التعليقات تنطبق على باروخ أيضاً.

وهكذا وصل أمل الأسرة العظيم هلدبراند مستشاراً موثوقاً به للبابا الجديد، هذا وافتتن الرومان بتواضع برونو البابا الجديد فحملوه إلى كنيسة بطرس الرسول، وهناك حدثهم عن إمبراطوره العظيم هنري الذي طلب منه أن يخدم حبراً أعظم، وأضاف قائلاً إن تسميته حبراً أعظم من قبل الإمبراطور فقط لا قيمة لها، إذا لم تتوج بموافقة أهالي روما، من نبلاء واكليروس، ورجال الشارع العاديين، وهكذا أرضى البابا غرور الرومان

بمثل هذه الأقوال فأعلنوه بكل سرور وغبطة بابا جديداً باسم ليو التاسع ، وهكذا ثبت مبدأ الموافقة الرومانية على تعيين البابا بشكل لا غبار عليه ، ولا ندري كم دفع آل بيرليوني من الأموال حتى أعدوا العدة لهذه الموافقة التلقائية للشعب الروماني ، والذي يهمنا هو أن ليو قد انتخب ، والحقيقة أنه كان جيداً وعظيماً ، وهكذا وكعلامة على امتنانه لنصائح هلدبراند ومواهبه النادرة جعله أمين سر الكوريا الرومانية ، التي بدأت تتخذ لأول مرة شكل مجلس وزراء الملك ، فلم تر روما منذ زمن طويل مثل هذه الجمعية النشيطة المؤلفة من رجال مخلصين ، وقد اعترفت بليو بمنصبه الجديد ، ذلك المنصب الذي لا يقل خطراً عن منصب الإمبراطور ، حاكماً لإقليم واسع الأرجاء ، ففي السنوات الخمس التي استمرت بها ولايته قضى ستة أشهر فقط في المدينة المقدسة تاركاً هلدبراند ليقوم برعاية شؤون البابوية ، بحرية تامة خلال غيابه الطويل ، وبالحقيقة كان هلدبراند هو نائب البابا ، بينما كان ليو في الخارج مشغولاً بعقد الاجتماعات في إيطاليا وفرنسا وألمانيا بهدف تعزيز مركزه وحكمه .

كان ليو صلباً عنيداً في الحكم ضد أولئك الاكليروس من المراتب الكثيرة الصغيرة ، الذين تزوجوا زواجاً عرفياً دون عقد زواج ودون حياء أو خجل ، ومن وقت لآخر كان يراجع كتاب «سلوك الاكليروس» وهو كتاب أهدي له ، يحتوي على تفاصيل الانحطاط الأخلاقي للأكليروس المسيحي ، وكان مؤلف هذا الكتاب هو بطرس داميان المعروف بقسوته وصرامته وحماسه ، وعدم الرغبة بالمساومة ، وهو بطرس نفسه الذي رحب بارتقاء غريغوري السادس عرش البابوية والذي عين رئيساً لأساقفة أوستيا على الرغم من إرادته ، وأوستيا هذه لا تبعد كثيراً عن روما ، وإن تمتع كل من بطرس وهلدبراند بالنفوذ والسلطة أثناء حكم ليو يقدم لنا شهادة ممتعة عن انقسام الكنيسة في العصور الوسطى ، فمن جهة نرى بطرس عندما كان يعيش في قصره الأسقفي يشعر وكأن السعادة لم تدخل إلى قلبه في وجوده الجديد على الرغم من الاحترام والوفرة والثروة ، لذلك حسب نفسه ولداً قروياً أجبر أن يرتدي البزة المدنية ، وكانت أفكاره ومثله صوفية

تقشفية إلى أقصى الحدود، وعلى الرغم من المنافع ومظاهر الاحترام التي كانت تحيط به، إلا أنه كان دوماً تواقاً لحياة الوحدة في قلاية الدير، الذي كان يعاقب فيه جسمه لمجرد تفكيره بالذنوب، أو حتى بالذنوب التي اقترفها الآخرون، أما من الجهة الأخرى، فإننا نرى هلدبراند يعيش في عالم مملوء بالنفعية والنزوع إلى جو المغانم دون تقدير لأخلاقية الوسيلة، وكذلك كان غارقاً بالحسابات السياسية والدبلوماسية الذكية والتأمل والتفكير الموهوب، والسحر المادي للمال، واللف والدوران والتعامل بفلس بطرس[1]، وأنواع العملة المختلفة التي كانت ترد إلى خزائن البابوية الخاوية، وكان يعرف أيضاً كيف يستفيد من داميان، إذ بينما كان هلدبراند يعد بمثابة وزير الخارجية، كان بطرس داميان هو المسؤول عن الدعاية والتبشير بالدين المسيحي، وكان أكثر إقناعاً من هلدبراند خصوصاً لدى معاقبة ولعن الاكليروس وجماهير الشعب الذين كانوا يهرعون إلى الكنائس لسماعه، ويعد مثل سافونا رولا، ومنه أتت فكرة اتهام المسيحيين في القرن الحادي عشر، والحقيقة أن هلدبراند لم يكن باستطاعته منافسته، فقد كان مثل نبي من أنبياء العبرانيين، ولكن حتى أصبح أداة في حركة الكفاح العظيمة التي سوف يأتي ذكرها، أما في الوقت الحاضر فقد كان على هلدبراند أن يقود الكوريا أثناء غياب سيده ليو وسفراته، وقد ظهر تماماً أنه هو ممثل البابا خلال جميع أركان العالم المسيحي، وقد استعملت كلمة (سيده) بمعناها الحرفي إذ مع أن هلدبراند كان مستشار ليو وشماسه المفضل، إلا أن هذا البابا عد معلماً لهلد براند، وقد تركت السنوات الخمس، أي الوقت القصير الذي استغرقه حكم ليو أثراً واضحاً وبصمات في نفس هلد براند، فبعد أن أصبح هلدبراند في منصب البابا كان يقول عند ذكر ليو: أبانا ليو السادس، أو سيدنا المحبوب، وكان يعني ما يقول فقد كانت مفاهيم ليو حول عدّ الكنيسة إمبراطورية

(1) فلس بطرس: ضريبة مقدارها بنس واحد كان يدفعها رب الأسرة في إنكلترا إلى الكرسي الرسولي، وينطبق هذا أيضاً على التبرع السنوي الذي كان يدفعه الكاثوليك إلى الكرسي البابوي.

كاثوليكية مسكونية يحكمها البابا، وهو الإمبراطور السماوي، كل هذه الأفكار أثرت تأثيراً شديداً على هلدبراند الذي لم يكن قد تجاوز الثلاثين من العمر بعد.

ومع ذلك فإن كان ليو قد أحرز شرف بناء تلك المؤسسة العالمية التي تدعى الكنيسة الرومانية، فإن ذلك لم يتم إلا بفضل عبقرية هلدبراند التنظيمية، وبخاصة في الشؤون المالية، مرة ثانية نعود لنستنير بأوصاف غريغوري لهذا الرجل ومنزلته الرفيعة وواجباته حيث قال: «لم يعد هلد براند، أعظم شخصية بارزة في روما فحسب، بل من أعظم السياسيين البارزين في جميع الأزمان، فقد جعل من الآخرين أدوات طيعة في يده، وفي معركته بصفته زعيم حركة الإصلاح، وقد ألهب حماس القديسيين والرهبان والمتعصبين وأعطى تعليماته للبابوات، وطلب من اللومبارديين أن يعودوا إلى قتل النبلاء القدماء، وكان يستعمل دوماً طرقاً ديماغوجية (أي دهمائية، غوغائية) وقد انتهز فرصة افتتان وتوقير كونتسة توساكنيا الفتية والقوية التي كان قد تفضل عليها، وطوق عنقها بأفضاله من خلال صداقته لها، وكانت أهم العيوب والأمراض الأخلاقية المنتشرة في زمنه هي التسري واتخاذ المحظيات، أي المعاشرة دون زواج شرعي، ثم السمعانية (بيع الوظائف الدينية)، وقد ناضل ضد هذه المخازي بحماس، ولكن بدلاً من أن يتطرق اليأس إلى نفسه، جعل هذه المخازي أسلحة استعملها البابا، وخدمت أخيراً في إخضاع السلطة الزمنية للسلطة الروحية الأمر الذي ساعد على حرمان الإمبراطور الألماني من نفوذه في روما، وهكذا ثبت الحكم الروحاني في جميع أنحاء العالم، (الكونتسة التوسكانية التي ذكرت هنا هي ماتيلدا التي سوف نتحدث عنها بالتفصيل بعد قليل).

وكان أحد أعمال هلدبراند الهامة، مع أنه أقل إثارة هو سد النقص في الخزينة البابوية، وكان هذا أمراً هاماً لأن معظم أهالي روما كانوا يعيشون إلى حد كبير على أموال الصدقات، وإذا لم يكن لدى البابا شيء يعطيه لهم، كانوا يضطرون للاستجداء في الشوارع، أو يعمدون إلى السرقة، فالحجاج الذين كانوا يأتون من بعيد ليتعبدوا في كنيسة

القديس بطرس، ويصلوا عند قبور الرسل الأوائل، كانوا يصعقون ويصابون بصدمة عندما كانوا يكتشفون أن الطرق التي تؤدي إلى روما لم تعد آمنة، والمدينة المقدسة نفسها أصبحت وكراً للتجار الخداعين، الذين إذا استلموا قطعة مالية من النقود من الزبون يردون له أقل مما بقي له عندهم، وكذلك المبتزون، (لم يكن هناك حاجة لإجبار الحجاج على العطاء، فقد ذكر أحد المؤرخين أنه في عام 1050 زار الملك ما كبث ملك اسكتلندا روما، ورأى البابا ووزع الهبات والعطايا على الشعب) والحقيقة أنه لا تعرف بالضبط كميات الأموال التي وهبها آل بيرليوني وآل فرانجيباني وغيرهم من النبلاء للفاتيكان، ولكن يظن أن القسم الأكبر من الهدايا التي وردت للفاتيكان والتي زادت في هيبته المالية هي الهدايا التي قدمتها مجموعة صغيرة من الأغنياء، ويعلم الجميع أن بيوتات توسكانيا وبيرليوني المالية قد قامت بدور فعال في دعم هلدبراند مادياً، وجعلته المنظم المالي للكرسي الأسقفي، ولقد أشار زيما الجزويتي إلى الروابط المادية التي ربطت غريغوري وآل بيرليوني، وقام زيما هذا بدراسة مستفيضة للبابوات المصلحين، وقبل زيما الحقيقة التي تقول إن غريغوري السادس كان يرتبط بالدم مع عائلة بيرليوني، وأما غريغوري السابع فكان يرتبط بهم من ناحية الأم مع أنه يتفق مع بول في الرأي أن العلاقات بين هلدبراند وآل بيرليوني كانت وثيقة إلا أنه ليس من المؤكد أن هذا كان من أصل يهودي رغم سحنته السامية.

وعلينا أن نتصدى الآن لذكر الحدثين الرئيسين اللذين حدثا أثناء حكم ليو التاسع، ذلك أن أحدهما له مساس بنتائجه بعصرنا الحاضر، وكلاهما يشكل مظهراً من مظاهر الهزيمة لا بل حتى الكارثة بالنسبة لليو، وبشكل من الأشكال للعالم أجمع، فالأول كان الانقسام النهائي الكامل بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الإغريقية، وهذا ما حدث عام 1054م، أما الثاني فهو ظهور النورمانديين المفاجئ كقوة عالمية.

واعتقد بعض المؤرخين أن النزاع الذي كان موجوداً بين القوتين الأعظم: الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، له جذوره العميقة في النزاع بين الكنيستين في القرن الحادي

عشر، ففي هذا القرن بدأ نشوء العالمين الشرقي والغربي، وذلك كما يدعي المؤرخ فريدريك هير، فلو نجحت الكنيسة اللاتينية في الإبقاء على كنيسة موحدة كاثوليكية حقيقية ومقبولة لدى الجميع، لكانت بلدان البلقان وروسيا الآن جزءاً من العالم الغربي، ولو كان هذا الأمر صحيحاً - وهو لا يخلو من قوة الإقناع - فإن الانفصال بين روما والقسطنطينية لم يكن حدثاً محلياً أو مجرد تاريخ من تواريخ الكنيسة، ولكنه كان حدثاً عالمياً هز أركان العالم، ومع أنه لا ليو ولا هلدبراند قد استطاعا أن يتنبأا بهذه النتائج، إلا أنه من المؤكد أن هلدبراند قد خذل سيده، وخذل الكنيسة، وخذل العالم أجمع، إذ لا بد أن البابا قد استشار هلدبراند بالنسبة لهذه القضية، وأخذ نصيحته، ومن الممكن أن تكون هذه النصيحة قد رفضت على أساس أنه يجب الرجوع إلى التعقل بدلاً من العمل المباشر، أو أن البابا قد اتخذ قراراً خاطئاً، ولكن علينا الآن أن نولي الاهتمام اللازم إلى السبب الرئيس لهذا الانقسام بين الكنيسة الشرقية والغربية وهم النورمان.

يعد النورمان، وهم من القبائل البربرية التي أتت من اسكندنافيا، من أكثر القبائل سحراً وفتنة، وكانت هذه القبائل قد اندفعت من الأقطار الشمالية للنهب والسلب والاغتصاب، وأخيراً حاولت الاستقرار في البلدان الجديدة التي هاجمتها، وأسس النورمان في ايرلندا وفي شمال فرنسا (نورماندیا) ومن هناك استولوا على إنكلترا عام 1066م، ولكن قبل هزيمة إنكلترا، كانوا قد أسسوا لأنفسهم مراكز في جنوبي إيطاليا، تلك المنطقة غيرا لمنظمة والمقسمة، والتي كانت تابعة جزئياً للبيزنطيين وللومبارديين، وكانت تشمل أيضاً ثلاث جمهوريات صغيرة وهي: جمهورية جنوى، ونابولي، وأمالفي، وكان هناك نزاع مستمر بين هذه الفئات وبين أباطرة الشرق الذين لم يكن بوسعهم الدفاع عن أملاكهم البعيدة عن القسطنطينية.

كان النورمان محاربين أشداء يستحقون الأجور التي كان يدفعها لهم أسيادهم، وقد أتوا كمقامرين وجنود يسعون وراء الثروة، وفي البدايات عندما كانوا لا يملكون

قيادات سياسية، لم يكن لديهم طموحات سلطوية، ولكن سرعان ما تطوروا وظهرت لهم قيادات سياسية خلال عدة عقود، فأصبحوا يشكلون خطراً وتهديداً للجمهوريات الصغيرة المستقلة وللممتلكات البيزنطية، ثم عبروا البحر إلى جزيرة صقلية، وكان قائدهم العظيم في ذلك الزمن هو روبرت غويسكارد، وكان رجلاً شديداً قاسي القلب في قتاله وأعمال توسعه وعملاقاً شمخ فوق أقرانه (من المفيد أن نذكر أن النورمان بصورة عامة قصار القامة، وسمر البشرة، ولم يكونوا شقراً أو زرق العيون كما يظن البعض).

ومع أن النورمان كانوا مسيحيين، إلا أن البابا ليو التاسع عد أعمال توسعهم تهديداً لدولة البابا، التي كانت تحافظ على وحدتها واستقلالها بغيرة وحماس، كأية دولة أخرى، ويجب ألا ننسى أن ليو كان قائداً عسكرياً متدرباً تقليدياً، كأي نبيل من نبلاء القرن الحادي عشر.

عندما استقبل ليو وفداً من مدينة بنفنتو، يعرض عليه انضمام تلك المدينة للأملاك البابوية مقابل مساعدته العسكرية لهذه المدينة ضد غزوات النورمان، وقبل البابا هذا العرض، ترى هل خطر ببال البابا أنه لم يكن يحارب المسلمين أو الوثنيين؟ بل أمة من إخوانه المسيحيين الموالين له والمعترفين به كبابا، وقد طرحت هذه القضية في المستقبل وكانت نقطة ضده، والحقيقة أنه لو نجح في حربه مع النورمان لعدّ مثلاً للبابوات الأبطال الذين اجتمع لديهم الدين والدنيا والتقوى مع الفضائل العسكرية، ولكن ويا للأسف إنه لم ينجح.

وتلاقت القوى المتقاتلة في سيفيتلا في 18 حزيران عام 1053م، وكان جيش البابا يتألف من المليشيا البابوية، ويدعمها اللومبارد الإيطاليون، ووحدات من الجيش الألماني (طلب من هنري الثالث إرسال جيش لكنه كان مشغولاً جداً فلم يستطع إرسال جيش كبير)، وقبل المعركة وصلت الأخبار إلى البابا تفيد أن النورمان لا يملكون سوى ثلاثة آلاف فارس، وقد انتابه الغرور وأخبره جيشه أن هؤلاء الشياطين غير المنظمين مهزومون، وليسو متمرسين في فنون القتال، فلا يجوز الخوف منهم أو حملهم على محمل الجد،

وسوف يهزمون بالسرعة الكلية، وسرعان ما حضر هؤلاء الشياطين الصغار ومع أن عددهم كان قليلاً، إلا كانوا أنهم متمرسين في فنون القتال إلى حد كبير جداً، ولا يخافون أحداً ولا يهابون شيئاً، وقد استسلم الطليان بسرعة أما اللومبارد فقد صعقوا وفقدوا صوابهم لشراسة الهجوم النورماندي، ولهذا أبيدوا عن بكرة أبيهم.

وكان ليو وجماعة من ضباطه يراقبون المعركة عن كثب، وبقلق متزايد عندما اخترق النورمان الحصون الخالية من المدافعين، وانهمكوا في عمليات القصف والعربدة والحرق والسلب والنهب والاغتصاب، وفجأة صادفوا البابا وهو يرتدي كامل أرديته الكهنوتية، فما كان منهم إلا أن توقفوا (وهذا المشهد يليق بالمخرج سيسيل دي ميل) ثم خر أولئك الجند وهم يتصببون عرقاً وينزفون دماً إلى الأرض وركعوا على ركبهم أمام حبرهم الأعظم، فاللياقة المسيحية يجب أن تراعى سواء كان هنالك حرب أو لا حرب، وكان ليو حقاً هو العدو الذي حاول قهرهم، ولكنه كان أيضاً هو الحبر الأعظم في كنيستهم، وعليهم أن يدينوا له الاحترام والإجلال والطاعة، وحالما ركعوا بخشوع تقدم قائدهم وقبل خاتم البابا وتكلم معه بكل خشوع وانفعال، وأعلن أن البابا قد أصبح أسيراً لدى النورمان، ومع أنهم عاملوه بكل لطف واحترام كما يجب أن يعامل الحبر الأعظم، إلاّ أنه مع ذلك كان أسيراً، وهكذا حمل إلى بنفنتو حيث أجبر على البقاء فيها حوالي ستة أشهر، ولم يطلقوا سراحه حتى وقع اتفاقية مع النورمان، خضع فيها لجميع مطالبهم، وعاد إلى روما وقد أنهكه المرض، وأرهق عقله الهم واليأس، وبعد بضعة أشهر، في 10 نيسان عام 1054 توفي ذلك البابا العظيم.

وكان من الطبيعي أن يطلب من هلد براند، ذلك الرجل الذي كان يدير شؤون البابوية أثناء حكم ليو، أن يخلف هذا البابا في الحكم، ولكن هلدبراند رفض ونصح الإمبراطور أن يعين جبهارد أسقف ايشستادت، وهو نبيل ألماني آخر ومن رجال الاكليروس، وتوج جبهارد رأساً باسم البابا فكتور الثاني (1055 ـ 1057م) وفي بداية

السنة الثالثة شعر الإمبراطور هنري الثالث الذي لم يتجاوز التاسعة والثلاثين من العمر بالمرض، وأسرع البابا فكتور لزيارته، ولكن سرعان ما توفي الإمبراطور ووضع هنري الثالث في مثواه الأخير في احتفال مهيب، كان على رأسه البابا فكتور وحضره النبلاء الألمان ونخبة من الاكليروس، وأعلن البابا تولي ابن الإمبراطور مهام الحكم، وأصبح يدعى هنري الرابع، وكان هنري صغيراً في السادسة من العمر في ذلك الوقت، وتولت أمه مهام الحكم القاسية بالنيابة عنه، وهي الإمبراطورة أغنس وبعد سنة سقط البابا فكتور ضحية ذلك السحر المشؤوم الذي كان يتعرض له البابوات الألمان، وفارق الحياة، وقد نصب بعده آخر بابا ألماني وهو البابا ستيفن التاسع، وهذا أيضاً تأثر بتلك اللعنة، وتوفي بعد عام واحد.

لقد ساعد تنصيب البابوات السريع في خلق جو من القلق في روما، وهذا ما جعل الأسر النبيلة القديمة، وبصورة خاصة الكرسنتيون (الهلاليون) يعملون على تنصيب واحد منهم بسرعة على عرش الرسول بطرس باسم بندكت العاشر، وكان هذا الاسم اسماً مشؤوماً يرجع في شؤمه إلى بندكت التاسع البابا الفاسق الشهواني الذي اشترى منه يوحنا جراتيان البابوية فقد كان حكم بندكت الجديد قصيراً، لأن آل بيرليوني قرروا طرده وإخراجه، لذلك اقترح ليودي بندكتو كرستيانو، وهو واحد من المواطنين الأغنياء، وابن أحد المتحولين اليهود، ومن ذوي النفوذ والعلاقات الحميمة مع هلدبراند، أن ينصب بابا جديداً معارضاً لهذا البابا وقام هلدبراند باختيار هذا البديل وهو جيرارد أسقف فلورنسا.

وفي هذه المرحلة ثبت عملياً أن الموقع الاستراتيجي الممتاز لتراستفيري كان ذا أثر فعال في تنفيذ أغراض البابوات المصلحين، وكانت هناك مدينة ليو، وهي ذلك الجزء من روما الذي كان قد حصنه البابا ليو التاسع، والذي احتفظت به الأرستقراطية الرومانية القديمة الموالية للألمان، فلم يكن يسمح لأي شخص ضد البابا أن يدخل خلال بوابات روما، دون موافقة هذه الأرستقراطية، ومن البوابات كانت الطريق مفتوحة رأساً إلى

الفاتيكان، ولكن الغيتو القديم كان في يد آل بيرليوني وقد أضيفت له حصون كثيرة، وكتب زيما: «في القرن الحادي عشر كانوا يسيطرون على الجزيرة ذات الجسر المزدوج، وهي جزيرة القديس برثلميو (جزيرة التيبر)، وحولوا مسرح مارسيلوس على الضفة اليسرى إلى برج مراقبة لحراسة مدخل الجزيرة، وكذلك سيطروا على مكان حصين في الزاوية الشمالية للفوريوم، قرب سجن ماميرتاين، وفي هذا الجزء من روما كان بإمكان البابوات المصلحين أن ينجوا فيما إذا طردوا من مدينة ليو، أو اللاتيران، وهكذا عندما حضر جيرارد أسقف فلورنسا الذي أصبح يدعى الآن البابا نيقولا الثاني (1059 ـ 1061م) إلى روما لخدمة الكنيسة المسيحية فتحت له أبواب تراستفيري، ودخل البابا إلى المدينة المقدسة من خلال الغيتو اليهودي في روما وتحت حراسة هلد براند، وليو بيرليوني، ومليشيا أسرتهما عندها انتشر الخبر بسرعة، وأرسلت الرسل إلى قلاع الكرسنتيين لإخطارهم أن المليشيا الرومانية كانت في طريقها إلى قصر اللاتيران، ولم يكن أمام بندكت من خيار سوى أن ينهي عهده القصير في البابوية، ويفر من المدينة قبل أن يستولي البابا الجديد على المقر البابوي، وقد بقي معتصماً في إحدى القلاع عدة سنوات حتى وافق أخيراً أن يتنازل عن عرش البابوية ويرحل بصفته مواطناً عادياً إلى والدته في روما.

لقد كسب هلدبراند المعركة الأولى ووضحت الآن أكثر من ذي قبل مناحي الصراعات، وأصبحت طبقة النبلاء القدامى برمتها مع الحزب الإمبراطوري لأسباب سياسية، وبالنسبة لبعضهم وبسبب انتساب بعضهم للأسر الألمانية منذ الجدود، ولخوف بعضهم الآخر من تزايد نفوذ البابا وبخاصة نفوذ هلد براند، ولكن الجميع كانوا يخشون النورمان، الذين تحركوا وانتقلوا إلى قرب روما، ولذا أصبحت مصلحة هلدبراند متفقة مع النبلاء الجدد، وقام بنزو أسقف إلبا وعدو هلدبراند اللدود بتعداد مؤيدي هلد براند، وافتتح القائمة باسم ليو بيرليوني الذي دعاه «ليو رئيس الجماعة اليهودية»، إذ يظهر أن ماء المعمودية لم يكف لغسل أصله اليهودي وهناك وثيقة أخرى ترجع في تاريخها إلى

28 نيسان عام 1060م وقعها جمع غفير من مؤيدي هلدبراند بما فيهم البابا الجديد والكاردينالات، وحاكم روما وظهر النبلاء مرة ثانية تحت إمرة ليو بندكتو كرستيانو.

لم يكن من أحد يدرك أكثر من هلدبراند أن النضال والحرب لتنصيب الأساقفة بدت وشيكة الوقوع، ويجب أن تكون جدية، وكان هنري الرابع لا يزال صغير السن، ولكن سيأتي الوقت الذي سيحتدم به الخلاف بين البابا والإمبراطور حول تلك القضية الخطيرة التي شملت العصر الوسيط، وكان من الأهمية بمكان، ومن الضروري مبدئياً تعزيز الأسس القانونية لسلطة البابا، لأنه على الرغم من العنف والوحشية التي ظهرت في العصور الوسطى كان من المعلوم أن الاتجاه العام في تلك العصور كان يميل للأخذ بالقانون، وسيادة النظام، ولهذا كان وضع أسس قانونية شرعية للنضال لا يقل في أهميته عن إيجاد حلفاء سياسيين أقوياء، ولهذا وبالنيابة عن نيقولا الذي كان يعمل تحت نفوذ وإشراف هلدبراند أعد هذا وثيقة لا تزال تعد أساس الإجراءات المتبعة في انتخاب البابوات مع أنها غيرت فيما بعد وعدلت، لا بل حتى في ذلك الزمن، وكما رأينا كان الانتخاب يستدعي الموافقة الإمبراطورية، واتفاق الكاردينالات والاكليروس الرومان والنبلاء، ولكن هؤلاء كانوا منقسمين على أنفسهم إلى فرقتين متعاديتين متحاربتين لم تتردد أي منهما عن استعمال القوة المسلحة في سبيل تأييد انتخاب البابا الذي كانت تؤيده، ولهذا أصبح الوضع في غاية الفوضى، وشعر الجميع أنه قد حان وقت استتباب النظام، ونقرأ في الوثيقة الهلدبراندية ما يلي: «وهكذا وبحضور نقولا في السنة 1059 من تجسيد المسيح وضع الإنجيل المقدس أمامنا، وكان البابا الرسول الكلي الاحترام والتقديس، نيقولا يرأس الاحتفال، بينما كان رؤساء الأساقفة المبجلون والشمامسة يساعدون في الكنيسة البطريركية اللاتيرانية التي تدعى كنيسة قسطنطين»، آنذاك قرأ هلدبراند وثيقة تعد واحدة من أهم المراسيم في تاريخ البابوية، وإننا سنقتبس بعضاً منها هنا، لأنها قامت بدور بارز في انتخاب اثنين من البابوات البيرليونيين، وهما غريغوري السابع، وبصورة خاصة أناكلت الثاني، ويذكّر هذا المرسوم بالحوادث المتتالية عندما كان يموت أحد البابوات فتعمد

عصابات النبلاء إلى فرض رجل تختاره لاعتلاء العرش البابوي، حيث يقول نيقولا: «تعلمون كم مرة تعرض هذا الكرسي الرسولي الذي لي الشرف أن أخدمه بمشيئة الرب، إلى المحن عند وفاة سيدنا وسلفنا ستيفن، وإلى تلك الضربات والجروح التي تعرض لها حتى أنه قد اهتزت أركان عرش الرب» ثم استطرد يقول: «ولذلك يجب وضع نظام للخلافة حتى لا يبقى هنالك مجال للمزاحمة»، ثم بدأ يذكر حيثيات الإجراءات بوضوح:

1 ـ عند وفاة الحبر الأعظم في الكنيسة الرومانية المسكونية يجتمع كرادلة الأسقفيات، ويتداولون بعضهم مع بعض، وبعدها يدعون كرادلة الاكليروس العاديين، وبعدها يتقدم الشعب، ويوافقون جميعاً على الانتخاب الجديد، وعلى هذا رست الصلاحيات في أيدي الكرادلة الأساقفة، لكن الشمامسة كانوا أيضاً مشمولين بذلك.

2 ـ إن هذه القاعدة ليست بالجديدة، وهي تتفق مع مراسيم أصدرها آباء مختلفون، وبصور خاصة ليو التاسع، والذين حاولوا أن يكتبوا وثائق مشابهة.

3 ـ يجب أن يختار البابا من أحسن الرجال الموجودين أي «من حضن هذه الكنيسة الرومانية»، ولكن في حالة عدم وجود شخص كفؤ فمن الممكن انتخابه من كنيسة أخرى.

4 ـ هنالك ملاحظة عابرة عن تفوق الإمبراطور المقررة هي كما يلي: «نخص بالشرف والاحترام الواجب ولدنا هنري، الذي يشغل في الوقت الحاضر منصب الملك، ونأمل أن يصبح في المستقبل إمبراطوراً بنعمة الرب، طبقاً لما وهبنا له ولخلفائه من بعده، الذين سيحصلون على هذا الحق شخصياً من هذا الكرسي الرسولي».

وينبغي التنبه لهذه الفكرة وهي أن الإمبراطور هو الذي يحصل على حقوقه، والبابا بفضله وكرمه يسلمه هذه الحقوق، وهذه رسمت خطوط السيادة البابوية.

5 ـ لو صدف بعد انتخاب البابا رسمياً، أن حاول أي رجل تعززه، أو تشجعه قوى الشر والعدوان، أن يمنع البابا من تسلم منصبه هذا، فإن البابا يجد تحت تصرفه جميع الموارد البابوية، وإذا حدث ونصب هذا المغتصب على عرش البابوية من خلال الفتنة والادعاء غير الشرعي، فسوف يعد هذا رجلاً ضد المسيح، وغاز، ومخرب للمسيحية

برمتها، ويجب عزله دون محاكمة، وأن يدان بالحرمان الأبدي، ولسوف يعزل كلياً عن المجتمع، ولينزل عليه غضب الرب القادر الآب والابن والروح القدس، ولسوف تصيبه لعنات الرسل في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتتناول هذه اللعنات التي تدين المدعي بعرش البابوية كل من يعترف بهذا الشخص أيضاً، ولسوف يصبح بيته خراباً يباباً، ولن يسكنه إنسان، وسوف يصبح أولاده أيتاماً وزوجته أرملة، ولسوف يطرد ويضطر أولاده للاستجداء، ولسوف تقاتله الأرض ومن عليها، وتقاومه جميع الكائنات (يلاحظ أن روح هذه اللعنات ليست روحاً مسيحية، ويتلمس بعض المؤرخين آثار الأسلوب القديم المستعمل ما بين فترتي العهد القديم والعهد الجديد في التوراة، ذلك الأسلوب وتلك اللهجة، التي كان يستعملها هلدبراند الذي كان غالباً ما يفضل اللهجة الصارمة القوية في اللوم والتحذير، وهي اللهجة نفسها التي كان يستعملها الأنبياء العبرانيون بدلاً من تلك اللهجة المهذبة الحلوة، وهي أحبوا أعداءكم).

ولقد زاد المرسوم الجديد عدد الناخبين من سبعة أشخاص إلى خمسين شخصاً، وهكذا نقصت قوة الكرادلة لمصلحة الشمامسة والكهنة، وأضاف شرطاً جديداً، وهو أنه لا يجوز أن ينتخب البابا قبل موت سلفه فعلاً ودفنه، ومع أن المدة التي كان تمضي ما بين موت البابا ودفنه، لم تكن أكثر من ساعة من الزمن، وهذا ما سنراه فيما بعد، إلا أنه عد من اللياقة أن تمضي ثلاثة أيام يقضونها صياماً بين الحدثين، أي ما بين دفن البابا وانتخاب بابا جديد، وفي القرن الثالث عشر كان من الواجب انقضاء عشرة أيام قبل انتخاب بابا جديد، وظل هذا الإجراء متبعاً حتى يومنا هذا، وخوفاً من تدخل القوى العسكرية لبعض الأسر النبيلة في المداولات تم إيثار أن تجري هذه المداولات في كنيسة محصنة، ولم يكن من الضروري إجراؤها في روما نفسها، وكانت الانتخابات تسبق بمناقشات حول المرشحين المختلفين: أخلاقهم وطول المدة التي ينتظر أن يدوم حكم الواحد منهم قبل أن يحل به الهرم، ثم كانوا يبحثون موقف كل مرشح تجاه الإمبراطور، وغالباً ما كان البابا

عندما يشعر بدنو أجله يوصي بخلفه، وكانت مثل هذه الرغبات تلبى، وبالطبع ففي حالة وجود مرشح واحد فقط، فإن الانتخاب الجديد لا يقدم ولا يؤخر، ومن الممتع أن نقول أنه عند تولي البابا أناكلت الثاني، بحث أمر الوثيقة في بداية الانقسام المأساوي الذي حدث عام 1130م، وإنه لمن سخرية القدر عندما نرى أناكلت بالذات، وهو ذلك البابا من آل بيرليوني الذي رعته أسرته بحماس، والذي هوجم بسبب أصله اليهودي، يتعرض في انتخابه للمناقشة والتفنيد على أساس السياسة التي وضع أسسها قريبه هلد براند.

وها نحن قد اقتربنا من مطلع قصتنا، فقد توفي نيقولا الثاني عام 1061م، واختار هلدبراند خلفاً له الاسكندر الثاني (1061 ـ 1073م) الذي كان أول بابا انتخبه طاقم الكرادلة الجديد، وطبقاً للقوانين الجديدة، واستمر هلدبراند في العناية بشؤون البابوية الداخلية ورعاية نظامها، والحقيقة أنه قد أحرز كثيراً من النجاح منذ أيام ليو التاسع الذي وجد الخزينة البابوية خاوية على عروشها، وتنفيذاً لهذه الأهداف عين أفراداً من عائلة بيرليوني في وظائف رسمية لتصريف الشؤون المصرفية البابوية ـ وكما يلاحظ (جورج كارو): كان بندكت وليو بيرليوني مشغولين بالصفقات المالية، قبل تحولهما إلى المسيحية، ذلك التحول الذي يمكننا أن نسميه صفقة مصرفية منظمة، ولهذا فمن المحتمل أن يكون هلدبراند قد أودع أموال الكنيسة في مصرف آل بيرليوني، ويمكننا أن نفترض أن الكنيسة كانت تستلم الفوائد المستحقة على ودائعها، مع أن هذه الودائع يمكن أن تكون قد استخدمت في الاشتراك بصفقات تجارية معينة ومربحة، ومنذ تأسست العلاقات المالية لليو بيرليوني، وهلدبراند كانت الأموال تدفع من الحسابات الجارية، وأما المبالغ الأخرى، فكانت تدفع سلفاً من حساب الودائع البابوية في المصرف، وكانت هذه المعاملات هامة ومتلاحقة ما بين عام 1059 و1061م عندما لم يكن هنالك أية تأكيدات حول انتخابات البابا، وعندما كانت النقود توزع على الشعب لربح أصواتهم لانتخاب مرشح حزب الإصلاح، ولذلك فليس من قبيل الصدفة أن استطاع هلدبراند بمساعدة رجل الأعمال

الذكي ليو بيرليوني أن ينظم الشؤون المالية البابوية ، وإنه لمن المعقول أن نفترض أن بندكت كان مشتركاً أيضاً في الشؤون المالية للكوريا ، ولا يستبعد حتى التحاق شخص إداري يهودي آخر بعد وقت قصير بإدارة الشؤون الداخلية البابوية .

لقد حدث ما ليس منه بد عام 1073م ، وتوفي البابا الإسكندر الثاني ، بعد أن تولى عرش البابوية مدة تسعة أعوام ، وكان حتى أثناء مرض هذا البابا قد عرض على هلدبراند أن يخلفه ، إذ أصبح هذا هو الخليفة الطبيعي ، فلم يكن هنالك أي شخص له تلك التجربة العريضة التي يملكها هلدبراند في روما ولا في خارجها (وصحيح أيضاً أنه لم يكن هنالك أي شخص له العدد نفسه من الأعداء) ، أما بالنسبة لقضايا إصلاح الكنيسة ، فقد كان هلدبراند يتميز بالصراحة والموضوعية التي امتاز بها دامين ، لأنه كان مقتنعاً أن من المستلزمات الأساسية لاستقلال دولة الكنيسة عن الإمبراطور أن تنظف وترتب شؤونها الداخلية أولاً ، إذ لا يمكن إلا لكنيسة قوية ونقية أن تتوقع الاعتراف الشامل بها كإمبراطورية دينية مستقلة ، وكانت وجهات نظره من السمعانية (بيع الوظائف الدينية) والتسري (زواج الكهنة) معروفة تماماً ، وقد أصدر معظم البابوات الذين كان له اليد الطولى في انتخابهم البيانات الرسمية القوية بهذا الخصوص ، وهي بيانات صدرت أيضاً بناء على قناعاتهم الشخصية ، أو بإيعاز من هلد براند ، وهكذا فقد حرم مئات الأساقفة ، والكهنة ، وزاد ليو التاسع بأن حرم جميع الزوجات اللواتي تزوجن زواجاً عرفياً في المدن الغربية ، وكانت وجهة نظره بالنسبة لتقليد المناصب الدينية لا تقل تشديداً وصرامة ، حيث عارض بشدة تعيين الملوك والأمراء والنبلاء للأساقفة والكهنة في الأقطار التي كان يعيش بها هؤلاء ، وأخيراً لا ننسى مواقفه السياسية ، فقد كان الحزب الموالي للألمان مرتاباً منه ، بسبب موقفه السلبي تجاه الإمبراطور الألماني ، والنفوذ الألماني في روما ، أما بالنسبة لقدراته الشخصية ، فلم يشك بها أحد ، ولكن لم يستطع أي مراقب ذكي أن ينكر أن عصراً جديداً في تاريخ البابوية قد بدأ بانتخاب هلدبراند حبراً أعظم ، وظهرت الأحداث الدراماتيكية

منذ البداية، ففي رسالة بعث بها إلى رئيس دير مونت كازينو في نيسان عام 1073م، يصف هلدبراند الحوادث بما يلي: «لقد توفي سيدنا البابا الإسكندر، وكانت وفاته صدمة كبيرة لي، وتأثرت تأثيراً عميقاً داخلياً، ووضع الشعب الروماني على غير عادته، مقاليد الأمور بيدي، بكل هدوء وطواعية، حتى أنه خيل لي أن ذلك كان عملاً من أعمال القدرة الإلهية، وهكذا وبعد عمل الاستخارة قررنا أن ننظر في أمر اختيار حبر أعظم جديد، بعد صيام ثلاثة أيام، وبعد إتمام القداس الجنائزي والصلوات العامة التي تصحبها أعمال البر والإحسان».

ويمكننا أن نتوقف هنا لنلاحظ نقطتين هامتين: الأولى أن هلدبراند وهو مؤلف مرسوم الانتخاب الذي أصدره نيقولا كان حريصاً على احترام القوانين التي سنها بنفسه، وكان عالماً أنه في يوم من الأيام سوف تصبح القيمة القانونية أمراً يحتمل الأخذ والرد، لا بل حتى الشك كما حدث ذلك فعلاً.

وأما النقطة الثانية فهي أن انتخاب هلدبراند تم على يد الشعب الروماني، وهذا يعني الشعب العادي وليس النبلاء، وهذا يوحي باستعمال قوى خفية، وذلك بالالتجاء لنفوذ الأموال والرشوات، فهل شعر وتنبأ الممول البيرليوني بالصعوبات المقبلة التي سوف يواجهها رجله، والتي منها إيجاد بابا معارض على يد العصبة الإمبراطورية، يا ترى؟ ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن على كل حال يستمر هلدبراند في القول: «ولكن وفجأة بينما كان سيدنا محمولاً إلى مثواه الأخير في كنيسة مخلصنا إذا بجلبة وصراخ من جهة الشعب، وإذا بهم يندفعون نحوي كالمجانين، وكلهم يريد مني أن أردد كلام النبي: (لقد أتيت إلى المياه العميقة حيث يغمرني الطوفان، لقد تعبت من البكاء وجف حلقي)، ولأقول أيضاً: (لقد انتابني الخوف واعترتني الرجفة، والتفتني الظلمة)»، (نلاحظ هنا للمرة الثانية اقتباسه لمقاطع من العهد القديم تتفق مع أسلوب هلدبراند أكثر من تلك الفقرات اللطيفة لعظة الجبل، وكما اقتبس من العهد القديم في أول رسالة له بعد اعتلائه السدة البابوية، هكذا كانت آخر جملة تفوه بها قبل وفاته هي أيضاً من أقوال الأنبياء العبرانيين).

ولا تذكر السجلات الرسمية لأحداث انتخاب هلدبراند باسم البابا غريغوري السابع، ولا تشير إلى الحشود التي اندفعت كالمجانين والتي أشار إليها هلدبراند في رسالته أعلاه، بل إن كل ما لدينا من الأخبار هو ما كتب في وثيقة مؤرخة في 22 نيسان عام 1073م تقول: «اجتمع كرادلة الاكليروس في الكنيسة الرومانية الرسولية المقدسة، والقساوية والشمامسة والكهنة، وذلك بحضور الرهبان المبجلين ورؤساء الأديرة الذين يدعمهم كهنتهم ورهبانهم، وفي وسط هتافات الجموع الغفيرة من كلا الجنسين ومن جميع المراتب، الذين اجتمعوا في كنيسة الرسول بطرس، وذلك لانتخاب هلدبراند بكل ما يستحقه من احترام وجلال ووقار، ووصفوا هلدبراند رئيس شمامسة الكنيسة، بالرجل التقي، وأنه بارز متفوق بعلمه في كل الأمور الدينية والدنيوية، ومشهور بحبه للعدالة والإنصاف، قوي وقت الشدة، متواضع زمن الرخاء، وطبقاً لما قاله الرسول، فهو ذو أخلاق حسنة وحياة تقية، متواضع، رزين، طاهر، مكرم للضيف، يرفرف الانسجام على شؤون بيته، ذو تربية ونشأة نبيلة منذ نعومة أظفاره وفي أحضان الكنيسة الأم، وبناء على فضائله هذه فقد رفع إلى منصب الحبر الأعظم» وبدا هذا الكلام مثل خطاب انتخابي في مؤتمر سياسي، ولكنه كان يعبر عن إيمان واقتناع الجماهير، فقد سئل هؤلاء:

- هل أنتم موافقون؟. نحن موافقون.
- هل ترغبون به؟. نعم نرغب به.

مرة ثانية:

هل توافقون عليه؟. وأجابوا جميعاً بصوت واحد، وبحماس: نحن موافقون.

كان انتخاب البابا مقدمة للاحتفالات والأفراح الشعبية العظيمة، فقبل انتخاب الإسكندر الثاني، وبسبب التتابع السريع لتولي البابوات في أزمان متقاربة لا تزيد عن الأشهر، زهد الناس بهذه الاحتفالات، ونقص اهتمامهم بسحر هذه الاحتفالات التقليدية، ولكن بالنسبة لهلدبراند، كان قد مضى على ارتقاء الإسكندر العرش البابوي

حوالي تسعة أعوام، وفوق ذلك كان هلدبراند رومانياً، ينتسب إلى أسرة معروفة لها نفوذها وثروتها، فيوم تتويجه هو يوم من الأيام الرائعة بصورة خاصة، ويوم فخر للمجتمع، بأجمعه، يوم إظهار السخاء والكرم بالنسبة لعامة الشعب والدهماء، فقد حل يوم التتويج في 29 حزيران في يوم من أيام الصيف القائظة، لكن هلدبراند آثر أن يستعمل الحكمة، ويخبر الإمبراطور هنري الرابع ويعطيه الوقت لإرسال ممثل عنه، واجتمع الجمهور في الساحة أمام كنيسة القديس بطرس أدفنكولا حيث رفع البابا رسمياً إلى السدة البابوية، والآن أخذوا ينتظرون ظهور البابا من الكنيسة العظيمة، وبدأ آخر نشيد ديني يعزف على الأرغن، تلك الآلة الموسيقية التي اعترف بها حديثاً كأداة كلاسيكية تصلح للعزف في الكنيسة، (وهي بقية من الآثار الرومانية الوثنية جلبت من البلاط البيزنطي)، وكانت جوقة المرتلين لا تزال تنشد حين تقدمت إلى البوابة الرئيسة، وتبعها الاكليروس، والموظفون العلمانيون والكوريا، وبينما كان الجمهور يهتف بصوت عال وبوحشية، ظهر البابا ومرّ أمام البوابة الرئيسة، وهو يرتدي الرداء الأرجواني وعلى رأسه تاج الأسقفية، ثم توقف الجمع على المنصة العالية فوق السلم، وعندها توقفت جوقة المرتلين عن الإنشاد، وساد السكون فجأة، ووقف الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، وهم مأخوذون بجلال الموقف ورهبته، وأمسكوا أنفاسهم وتوترت أعصابهم حتى لا تفوتهم أية حركة تحدث أو أية كلمة تقال، وأحاط بالبابا ثلاثة أساقفة للعناية به، وهم: أسقف أوستيا، وأسقف ألبانو، وأسقف بورتو، وذلك طبقاً لتقاليد قديمة متبعة في مثل هذه المناسبات، وعندها تقدم رئيس الشمامسة من البابا، ونزع عن رأسه تاج الأسقفية، ثم أمسك بالتاج البابوي المثلث بكلتا يديه، وبدأ يتلو صيغة التتويج كما يلي: «خذ هذا التاج واعلم أنك قد أصبحت الآن أباً للأمراء والملوك، وسيد هذا العالم، ونائباً لسيدنا المسيح على الأرض، والذي عليك أن ترعى شرفه ومجده إلى أبد الآبدين»، وبعد ذلك وضع التاج المثلث الثقيل المزين بالمجوهرات على رأس البابا، وهو رمز للعبء الثقيل الملقى على عاتقه كحبر أعظم،

ثم بدأ الموكب بالسير عبر المدينة، متجهاً إلى الكنيسة اللاتيرانية، وهي أم الكنائس في العالم ورئيستها، وهي كنيسة قسطنطين، إذ كانت هذه الكنيسة تُعَدّ هي الكنيسة البابوية، بدلاً من كنيسة الرسول بطرس، وكانت التقاليد تقضي أن يحتل البابا الكنيسة اللاتيرانية، وقصرها المجاور لها حتى يصح أن يُعَدّ هو الحبر الأعظم بحق وحقيق.

تقدم الآن إلى الأمام حامل الصليب الذهبي يتبعه اثنا عشر رجلاً يدعون البانتياري، وهم يحملون اثنتا عشرة راية بابوية، ثم تقدم اثنان من الفرسان يحمل كل منهما رمحاً مزيناً بصور ذهبية للملائكة، ومعهما اثنان من المديرين الرسوليين، واتخذ الجميع أماكنهم المعينة.

وكان نظام سير الموكب يجري طبقاً لعادات قديمة مرعية، أدخلت إليها عدة تعديلات، بعد حوادث مشابهة، حدثت في روما الوثنية القديمة:

أولاً: كان يأتي محامو البلاط، وبعدهم القضاة بأرديتهم الطويلة السوداء، وبعدهم جوقة المرتلين، الذين كان عليهم أن ينشدوا الأناشيد الطقوسية الملازمة لتلك المناسبة، ثم يأتي رجال الاكليروس وعلى رأسهم الشمامسة الكبار والشمامسة الصغار، ثم رؤساء الأديرة القادمون من مدن خارج روما، ثم الأساقفة، ثم رؤساء الأساقفة، وأخيراً رؤساء الديرة العشرين في روما، وحضر المستشار الإمبراطوري، ممثل الإمبراطور هنري الرابع الرسمي، وكذلك والدة هنري وهي الإمبراطورة أغنس مع البطانة البابوية، وهنا امتطى البابا حصاناً أسود بمساعدة بطانته، وكان هذا الحصان مزيناً بالتاج البابوي المثلث، وكان سرجه مزيناً بالحجارة الكريمة، ولون عنانه أرجوانياً بلون رداء البابا.

وأما لجام الحصان المثقل بالزينة، فكان يمسكه حاكم روما، إذ احتفظ بهذا الشرف لحاكم روما، وقد تألفت مؤخرة هذه البطانة من جمهرة القضاة وأعضاء المجلس البلدي ورؤساء الأسر النبيلة في المدينة، وحالما تقدمت عربات النبلاء الرشيقة، كل منها تظهر رنك الأسرة وشعارها، ويجرها أربعة من الخيول، وسارت إلى الأمام ببطء، رؤيت عربة تحمل

صورة أسد ذهبي على أرضية أرجوانية، تجري والجميع يهتفون لها، لقد كانت هذه العربة هي عربة آل بيرليوني الآتية من تراستفيري، وهم أقارب هلدبراند وأهله، وكانت المدينة تتألق بالزينات بهذه المناسبة، وقد ظهرت السجف الملونة المزدانة بالرسوم والرايات تتدلى من نوافذ بيوت الأثرياء، أما الفقراء فقد تدلت من نوافذ منازلهم حبال الزهور، والأشرطة الملونة، والأكاليل، أما أجراس الكنائس التي كان في روما وحدها منها حوالي الثلاثمائة، ما عدا الأديرة والبازيلكات، فكانت تؤلف خلفية موسيقية صاخبة، وكانت أصوات الأجراس تكاد تصم الآذان أحياناً، ولكن صراخ وصياح الجماهير كانت تطغى عليها أحياناً، تلك الجماهير التي اصطفت في الشوارع، وقد حاولت المليشيا البابوية أن تحفظ النظام بشكل ما، تساعدها مليشيات المدينة والنبلاء، ونصبت أقواس خاصة تحمل أسماء الحبر الأعظم الجديد بهذه المناسبة مع أنها لا تعد شيئاً مذكوراً أمام عظمة أقواس النصر القديمة كأقواس قسطنطين، وتيتس، وجراتيان، وثيودوسيوس، وفالنتاين، ومع ذلك اكتسب ذلك المشهد شيئاً من الفخامة إزاء تلك الخلفيات المنتشرة لآثار الأبنية الرومانية العظيمة القديمة، كالكولوسيوم وحمامات كركلا، ومسرح مارسيلوس، وخمسة أسواق إمبراطورية أخرى، وكان هنالك أيضاً أبراج النبلاء المحصنة التي كانت نوافذها وأسوارها تتقابل مظهرة العداء السافر بعضها لبعض.

وبدت الفوضى في فن المعمار في روما في العصر الوسيط، وكأنها تزاوج مختلط بين الوثنية والمسيحية، فقد ظهرت نصب الأرباب والربات تقف بهدوء جنباً إلى جنب مع القديسين في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وكانت هذه الظاهرة واضحة في كنيسة القديس نيقولا في كارسيري، والتي بنيت على أنقاض معابد جانوس وجوثون، وسوستيا، واسبراسيا، واستعملت فيها الأعمدة الرومانية القديمة لدعم سقوفها.

وتحرك الموكب ببطء باتجاه الكنيسة اللاتيرانية، التي كانت بعيدة جداً عن الفاتيكان، وكنيسة بطرس الرسول، حتى أن السواح في هذه الأيام يجدون صعوبة في الوصول إليها،

وتوقف الموكب كما كانت العادة أيام باروخ ليتسنى لموكب اليهود التقليدي أن يؤدي واجبات الخضوع والطاعة للبابا، ومرة ثانية وقف الرباني اليهودي وقفة الوجهاء على منصة مزينة بالرموز والأعلام، ومرة ثانية وقف البابا طويلاً ليستلم تأكيدات اليهود بالولاء، وليمسك بيده درج الشريعة اليهودية، التي قدمها الرباني له، ثم ليتقدم البابا ليهب بركاته لجماعة اليهود القدماء في روما، إلا أنه قرن تلك البركة بالتأنيب القاسي الحاد لعنادهم الشديد، ورفضهم اعتناق دين الكنيسة مع الغطرسة والإصرار، والكبرياء التي علمهم إياها موساهم، وجعلها واجباً عليهم، مع أن ذلك من عمل الشيطان، ولاشك أن هلدبراند قد كرر كل هذه الجمل مع البركات واللعنات دون أي تردد لا بل حتى بإيمان عميق، وهو يعلم تمام العلم أن أسرته التي خرجت من الغيتو اليهودي، في تراستفيري، قد غادرت عالم العهد القديم، والمعتقدات الخرافية القديمة إلى غير رجعة.

توقف الموكب في خمسة أماكن معينة، ومقررة، وذلك لإنجاز أعمال دنيوية وهي توزيع الأموال، (وكانت روما تشتهر بالنهم والجشع الذي يضرب به المثل بالنسبة للمال، وكان هنالك مثل مشهور في العصور الوسطى يقول: إن روما إذا وجدت مشترياً فهي لا تتردد عن وضع المدينة برمتها في المزاد العلني للبيع)، وفي هذه النقاط أي بازليكا الرسول بطرس، وبرج ستيفانوس – حيث كان على الموكب أن يتوقف لاستقبال الوفد اليهودي – وساحة سنس موسكا في بونجا، وساحة القديس ماركوس، والقديس هدريان في الفورم، هناك ظل الفقراء ينتظرون عدة ساعات، وهم يتدافعون بالمناكب ويصخبون ويشتمون بلهجة الأفاكين الفسقة، من عمال روما، (طبقة العامة في روما) وبينهم المرضى والمعاقين والمتسكعين، والمتسولين المحترفين: الذين كانوا مستعدين لاقتراف أي عمل مقابل قبض النقود، هذا وتزود الموظفون الماليون في الخزينة البابوية بالأموال الكافية التي تبرع بها كثير من الأسر النبيلة حتى لا ترهق الخزينة البابوية بمثل هذه المصاريف، وكانت هذه المناسبة الجليلة تفقد هيبتها عند التزاحم والتدافع الجنوني بالمناكب للحصول على النقود،

التي كانت تبدد وتبذر بعد وقت قصير في الحانات والمواخير التي كانت على أتم استعداد لهذه الأعمال بمناسبة تتويج البابا، ولا يشك أن أعمال التدافع والتزاحم هذه كانت تستحق أن تسجل بفرشاة الرسام بطرس بروغل بأسلوبه اللاذع.

وبعد مسيرة دامت ساعات وساعات، وصل الموكب إلى مجموعة من الأبنية العادية، والكنيسة التي تدعى اللاتيران، هناك بنى الإمبراطور قسطنطين كنيسته الكبرى (البازليكا) على الأرض التي كانت زمن روما القديمة تخص أسرة لاتيراني، وكانت هذه الكنيسة تحتوي في يوم من الأيام على بعض التحف والكنوز المقدسة ذات القيمة الطقوسية الأثرية، التي أخذت من هيكل القدس، والتي كان يشاهد قسم منها، في قوس تيتس، مثل الشمعدان ذي السبع شعب الذي يدعى مينوراه، وأبواق الكهنة الذهبية التي تستعمل في الاحتفالات القربانية، لكن هذه التحف وغيرها من الكنوز القديمة اختفت بعدما حملها الوندال الذين لم يكونوا يدركون قيمة تلك التحف والكنوز القديمة التاريخية، التي نهبوها في هجومهم الوحشي الخاطف على روما، ومع أن بازليكا قسطنطين كانت تشكل قلب هذه العقدة المركبة من الأبنية، وكانت أهم بناء وأكبره هناك، فقد أضيفت عدة أبنية أخرى خلال القرون، كنيسة تلو كنيسة، وديراً بعد دير، والفنادق لإيواء الحجاج من رجال الدين ومن العلمانيين الذين كانوا يؤمون المدينة بالألوف، وشيد سور محصن حول هذه الأماكن عندما ظهر أنه من الضروري حماية هذه الأماكن المقدسة ليس ضد البرابرة فحسب، بل ضد العصابات المسلحة في روما، لكن هذا السور صدعته الزلازل منذ زمن طويل، كما هدمت أبنية كثيرة إما عرضاً عن طريق الصدفة، أو عمداً خصوصاً خلال الانقسام، الذي حدث في القرن الرابع عشر، عندما انتقل البابوات إلى أفنيون، ولهذا انتقل مركز الثقل إلى كنيسة القديس بطرس، وهي مفخرة أعمال ميكيل آنجيلو الفنية، وأصبحت هذه الكنيسة وهي كنيسة روما الرئيسة، ويقع القصر اللاتيراني، وهو مقر البابا بجوار البازليكا وهي الكنيسة البابوية (القصر اللاتيراني الموجود حالياً يرجع في تاريخه إلى القرن السادس

عشر، وهو أصغر بكثير من القصر القديم الذي نحن بصدده) وكان انتخاب البابا لا يعد قانونياً، وذلك طبقاً للقوانين الكنسية، حتى يصبح مالكاً رسمياً لتلك الأملاك بطريق عمليات شراء رمزية كانت تتلو الإجراءات القانونية التي نص عليها القانون الروماني الذي كان ساري المفعول في أوائل عصر البابوية، وإن هذا الإجراء الروتيني لإثبات الملكية، هو الذي جلب غريغوري إلى اللاتيران، وعند وصول الموكب البابوي إلى ساحة سان جيوفاني في اللاتيران، ترجل الجميع واستعدوا لدخول الكنيسة الكبيرة، وكان هنالك جمع غفير من المتفرجين الفضوليين من محبي الاستطلاع الذين كان بعضهم لا يزال يأمل عبثاً بالحصول على بعض المال، وتحلق هؤلاء حول محيط الساحة في الوقت الذي بدأ به الضيوف المدعوون بالصعود بوقار، وهم متعبون على الدرجات الموصلة إلى البهو الكبير الذي كان يحتوي على نصب قسطنطين، وهنالك أجلس البابا بشكل رسمي طقوسي على عرش قديم من المرمر الروماني، ثم بدأت جوقة المرتلين ترتل مرة ثانية أنشودة التتويج الطقوسية، وحالما نهض البابا، بدأ الكرادلة يرددون معاً وبشكل جماعي الأدعية والتبريكات، وتقدم عدد من أعضاء الكوريا أنيطت بهم مهمة وضع كيس نقود صغير من الجلد في يد البابا، وعندما فتح البابا هذا الكيس بكل وقار وجدية، ورأى فيه ثلاث قطع من العملة، رفعها حتى يراها الجميع: إحداها ذهبية، والثانية فضية، والثالثة بنساً من النحاس، ثم بادر إلى توزيع هذه القطع على من حوله ثم أقسم نذر الفقير قائلاً: «ليس لي أن أمتلك الذهب ولا الفضة، وكل ما أملكه سأعطيه لكم»، هذا ويلاحظ أنه في حالة هلدبراند وعدد من البابوات الآخرين، من آل مديشتي مثلاً: لم يكن لهذه الإجراءات أية أهمية عملية، فالثروات الطائلة التي امتلكها البابوات لم تكن لتتأثر بأي قسم أو نذر.

ودخل غريغوري الآن الكنيسة حيث قدم له الاكليروس فروض الطاعة والخضوع، وهو جالس على عرش وضع على المذبح بهذه المناسبة، ثم تقدم البابا إلى كنيسة القديس سلفستر التي كرست للبابا الذي كان قد عمّد قسطنطين الكبير، واقترب من كرسيين

فخمين مزينين بالنقوش ومتماثلين بالحجم والمظهر، وحالما جلس على الكرسي الأول، اقترب منه رئيس الأديرة بوقار عظيم وخشوع، ثم سجد أمامه وسلمه صولجان الحبر الأعظم، ومفاتيح اللاتيران، ومنذ تلك اللحظة استلم هلدبراند رسمياً مقاليد السلطة، فهو وحده الذي يحكم الدولة البابوية، لا بل حتى العالم بأجمعه، من خلال هذا الكرسي الرسولي أو السدة البابوية، ثم انتقل إلى الكرسي الثاني، وأعاد رموز السلطة التي سلمت إليه إلى رئيس الأديرة، ليكون قيماً ومحافظاً عليها، ثم قدم له حزاماً من الحرير الأحمر ألصق به كيس نقود أرجواني، فنهض البابا وأخرج حفنة من النقود من الكيس ووزعها على الحاضرين كعمل صامت من أعمال البر والإحسان، ثم وقف الجميع حالما شاهدوا الحبر الأعظم ينحدر على الدرجات من المذبح ويدخل إلى كنيسة سانتا سنكتوريوم، وهذه الكنيسة التي لا يسمح للمسيحيين الأتقياء الورعين بالدخول إليها إلاّ وهم جاثون على ركبهم، تحتوي على بقايا الرسل المقدسة، محفوظة في أوعية خاصة، مصنوعة باليد لحفظ الذخائر الدينية، التي يعتقد المؤمنون أنها تشفي جميع أمراض الأجسام والأرواح، ولم يُبد أي شخص أية حركة، بينما ركع البابا في الكنيسة وحده، برعاية الرب، وبصحبة أفكاره لأول مرة في حياته، وهو يصلي ليهبه الرب القدرة على تحمل المسؤوليات والنضال لأجل مصلحة الكنيسة، ذلك النضال الذي لم يكن يتوقعه فقط، بل كان قد وضع خطوطه الأولية، بعد أن كان يعلم علم اليقين أن لا مناص، ولا مندوحة عنه، وكانت الصلاة طويلة، وحماسية متقدة، ثم نهض وعاد إلى العرش في كنيسة القديس سلفستر، لإفساح المجال للكرادلة والأساقفة لأداء فروض الطاعة والخضوع لمعلمهم وسيدهم بأن يركع كل منهم ويقبل قدم الحبر الأعظم المنتخب، وذلك كما كانت تقضي التقاليد الكنسية في مثل هذه المناسبات، وبعدها استلم كل منهم عند نهوضه «البرسبتيريوم» Presbetyrium وهو شعار تذكاري مصنوع من الفضة محفور عليه اسم البابا غريغوري السابع، وتاريخ التتويج في 29 حزيران 1073، وبعدها أتى دور الرجال العلمانيين، وعلى رأسهم أعضاء مجلس

الشيوخ في روما، ليدخلوا ولينحنوا أمام البابا، وليبايعوا الحبر الأعظم الجديد بجلاله ومجده وسلطته، وهكذا انتهت الاحتفالات الرسمية في الكنيسة، وفتحت أبواب القصر على مصاريعها وتسلل البابا والكرادلة من خلال باب صغير يؤدي إلى المخادع البابوية، حتى يتسنى لهم اختلاس لحظة من الانفراد والراحة، بعد تلك المحنة الطويلة التي استغرقت سحابة يوم بكامله، وقد قرب موعد الولائم المنتظرة، وبدأ الجمهور يتحرك دائرياً دون نظام بعد أن تحرر من الجدية والرزانة والرهبة التي سادت الموقف أثناء الصلوات والاحتفالات، فأخذ أفراده يتجولون خلال المقاصير الرحبة، حتى يحين موعد الوليمة الكبرى، ثم دخلوا بسرعة إلى صالة الولائم التي كانت شديدة الأناقة تعود في تاريخها إلى القرن الرابع، واحتوت على طابع مختلط من الأساليب المختلفة، فقد حفظ بها كثير من الأدوات الأثرية الرومانية القديمة كما هو الحال في أمكنة أخرى كثيرة في روما، فهناك الشمعدانات والسجف الملونة والمزينة بالرسوم، والأعمدة والتماثيل والمنحوتات، وفي جميع أرجاء المكان رؤيت تماثيل نصفية لقسطنطين، لتذكر الجميع بالمحسن الأكبر الذي أنقذ المسيحية، وكان قد أعيد بناء هذه القاعة زمن البابا ليو الثالث في القرن التاسع الميلادي، ولكن احتفظ بهندسة بنائها القديمة وزخرفتها، وفي زمن تتويج غريغوري، كانت هذه القاعة لا تزال تعكس البساطة المجردة والجافة للعالم الرومانسيكي من صور الملوك والفرسان، والبابوات، والقديسين، وقد عقدت كثير من المجامع الكنسية في كنيسة اللاتيران والقصر، ولطالما انبعثت وانطلقت من تلك القاعات، البيانات والقرارات الرسمية المسكونية التي عدّت نقاط تحول حاسمة في تاريخ الكنيسة، ولم يكن هنالك من أحد ممن شاهد الأناقة والفخامة الهادئة لتلك القاعة عام 1073، ليتصور أنه خلال مدة اثني عشر عاماً سوف يخلع البابا غريغوري في اللاتيران، وتصبح هذه القاعة ذاتها غرضاً للنهب والسلب على يد النورمان، ولم يبخل بأي جهد لرفع قيمة وروعة وبهاء هذه الوليمة، فقد جلبت أيقونة شهيرة للمسيح، كانت تعرض عادة على المذبح، ووضعت في

القاعة بهذه المناسبة ، فقد قيل إن هذه الأيقونة تمتلك قوة لا تمتلكها أية صورة في العالم ، إذ تقول إحدى الأساطير أن صنعها لم يتم على يد أحد من بني البشر ، وصفَّت الموائد الطويلة المزينة بالصحون الذهبية ، والصيني الثمين ، والأواني الفضية والأزهار ، وكان رجال الكهنة يجلسون حول هذه الموائد كل طبقاً لمرتبته ، وبعدهم جلس أفراد الأسر النبيلة كل حسب قدره ، وحالما دخل البابا نهض كل إنسان وتوقف الجميع عن الحديث لمدة قصيرة ، ولكن عندما جلس البابا الذي كان قد بدل ثيابه الكهنوتية الرسمية الثقيلة بغفارة[1] خفيفة استؤنف الحديث من جديد ، ثم أحضر الطعام ، وكان طعاماً دسماً ، يتألف من عدة ألوان وعدة أنواع من السمك واللحوم المشوية ، وجميع أنواع التوابل والأوز والفراخ المشوية المحشوة بالبيض ، ولحوم الصيد المتبلة بالفلفل ، والسمك المطهو بالزنجبيل ، ثم كانت هنالك عدة أصناف من الحلويات لا تقل في دسامتها ولذتها عن الأصناف الأخرى الرئيسة ، وأما النبيذ الذي لم يكن حلواً بشكل كاف فقد مزج بمواد مُحلية كالعسل .

جلس الحبر الأعظم أمام مائدة منفردة بعيداً جداً عن ضيوفه وقد بدأ النبلاء بتقديم أصناف الطعام له كل صنف على يد نبيل معين ، ووزعت أدوار خدمته طبقاً للعادات القديمة المتبعة ، ولكن لم ينبس أحد ببنت شفة أثناء الطعام ، لقد قدم للبابا الصنف من الطعام تلو الآخر ، وصب له النبيذ ، وقدمت له الحلوى ، ثم الفواكه ولكن لم تصدر أي كلمة لا من البابا ولا من النبلاء ، وذلك لأن غريغوري كان يقصد بجلوسه ، منفرداً على مائدة منفصلة ، دون التفوه بأية كلمة ، أن يرمز إلى الانعزال الرهيب الذي يكتنف مركز البابوية ، لقد اتخذ هلدبراند لقب غريغوري لإحياء ذكرى سيده المحبوب وقريبه يوحنا جراتيان بيرليوني ، وهو غريغوري السادس ، الذي رافقه إلى ما وراء الألب ، والذي ورث منه تلك الثروة الطائلة التي قام على إدارتها بعناية فائقة ، فقد شهد الكرادلة أن هلدبراند «كان معتدلاً في رضائه» ولاحظوا أنه قد تربى تربية نبيلة منذ نعومة أظفاره في أحضان أمه

---

(1) الغفارة : رداء الكاهن في الكنيسة .

الكنيسة، ومن المحتمل أنهم أشاروا إلى أنه على الرغم من كونه فرداً من أفراد تلك الأسرة النبيلة من تراستفيري، إلا أنه قد ولد مسيحياً.

وعلى كل حال فحينما نراقبه وهو على السدة البابوية، لا نستطيع أن نشك بإيمانه المسيحي العميق وحماسه الشديد للمسيحية، ومع أن سحنته كانت تشبه سحنة الرجل اليهودي أو الشرقي، إلاّ أن إيمانه كان إيماناً مسيحياً لا يتزعزع، وأن ملاحظاته عن اليهود لا تفضح أي شعور خاص أو تحيز لهم، وبينما نجد سلفه الإسكندر الثاني يوبخ الكونت لاندولفْ بنفنتو لمحاولته إجبار اليهود في إقليمه على التحول إلى المسيحية، لا نجد وثيقة مشابهة قد صدرت في عهد غريغوري، بل على العكس نجد أنه عند انعقاد المجمع الكنسي الروماني عام 1087م كرر التحذير الذي ينص على أنه لا يجوز أن يسمح لليهود أن يحكموا المسيحيين، وقد عبر عن هذا المعنى بالنهي في رسالة أرسلها إلى الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة، الذي كان معروفاً عنه أنه يعامل اليهود معاملة لينة، فقد كتب له يقول: «ولكن وبما أنه ليس علينا أن نهنئكم بتلك الأمجاد التي أحرزتموها فقط بل علينا أن نعبر عن أسفنا لتوجيه نظركم بالامتناع عن تنفيذ بعض الإجراءات غير اللائقة، وذلك بأن نأمركم بألا تسمحوا لليهود في بلادكم أن يحكموا المسيحيين، أو أن تكون لهم أية سلطة عليهم، لأنه إذا وضعتم المسيحيين في مركز أدنى من مركز اليهود أو إن عرضتموهم ليكونوا تحت سلطة اليهود قضائياً، فما ذلك إلاّ ظلم يقع على كنيسة الرب، بإعلاء شأن كنيس الشيطان بهدف إرضاء أعداء المسيح، وجرّ المسيح نفسه إلى مواطن الازدراء والتحقير».

وعلى كل حال لم يكن اليهود هم المادة الأساسية لاهتمامات غريغوري، فقد أعد برنامجه ليخدم عقوداً طويلة، وأهم غاية له كانت تنظيف الكنيسة، بإعلان استقلالها، وتقدم إلى معالجة إصلاح شؤون الاكليروس أولاً، ففي أول مجمع كنسي عقده عام 1074م رسم ما يلي:

1 – إن أي رجل من رجال الاكليروس قد حصل على وظيفته بالرشوة ودفع المال، فلسوف يخسر هذه الوظيفة، وأبرشيته، لأن الوظائف الكنسية ليست للبيع.

2 – إن أي كاهن أو أي أسقف عرف عنه ارتكابه ذنب السمعانية (وهي بيع الوظائف الدينية) سيصبح من الآن غير جدير بحمل وظيفته.

3 – إن أي كاهن اتهم بالزنا يخسر حقه بالعمل في الكنيسة.

4 – إن كل من يسمح لنفسه بأن يستفيد من خدمات أي كاهن مذنب، ومتهم بأحد الذنوب المذكورة أعلاه، سوف يعد مذنباً أيضاً.

وواجه هذا المرسوم نتائج مشؤومة، ففي كثير من الكنائس، وعندما نفذ الكهنة واجباتهم بتلاوة المرسوم على جمهور المصلين الذين تجمعوا لحضور القداس يوم الأحد، ما كان من الجمهور إلاّ أن هجموا على الكهنة وأنزلوهم من على منبر الوعظ في الكنيسة، وجروهم، وأخرجوهم وقذفوا بهم إلى الشارع.

أما رئيس أساقفة روان، فقد قذفه الجمهور بالحجارة بعد أن قرأ لهم المرسوم في كاتدرائيته، وأما هنري الرابع فلم يستجب لهذا المرسوم، ورفض الاكليروس لديه قراءة المرسوم للشعب، وفي إنجلترا واسكندنافيا خشي الاكليروس أن يقرأوا هذا المرسوم للشعب، وأما في فرنسا فقد أعلن الكهنة في مجمع باريس أن هذا المرسوم باطل ولاغ، وأنه عقيم لا طائل تحته، وسخيف ومضحك، فقد أصبح بيع الوظائف الدينية (أي السمعانية) وزواج الكهنة جزء من حياة الكنيسة لمدة طويلة، حتى أنه ظهر للعيان أن مجرد توقع إجراء تغييرات جذرية ما هو إلا أمر غير واقعي، وغير عملي، وفوق ذلك، وبما أن الملوك قد تأكدوا أن الضربة التالية للبابا ستوجه ضدهم، لذلك لم يعد لديهم أي رغبة أو حماس لحث الكهنة وتشجيعهم على إطاعة أوامر البابا، وهكذا ظلت الأدران لاصقة بالكنيسة، واستمر الرقص حول العجل الذهبي[1] أحد الطقوس الواسعة الانتشار في العالم المسيحي.

---

(1) إشارة إلى مخالفة اليهود تعاليم موسى، وعبادتهم العجل الذهبي أثناء غياب موسى على جبل الطور لمناجاة الرب.

وهكذا بقي الدين، والتحلل من الواجب، والغفران يباع ويشترى، وكانت الكاتدرائية هي سوق البيع، وأصبح الكهنة بائعين متجولين شديدي الحماسة لعملهم، وقد ظل الحال على هذا المنوال إلى أن ظهر راهب مرتد عن الدين، وهو مارتن لوثر، وقاد ثورة ناجحة ضد تلك الأدران، فقد ثبت أن فرض العزوبية على الرهبان أمر صعب التطبيق، وذلك كما ظهر من الدعاوى المقدمة للمحاكم لطلب نفقة الزوجات المطلقات، وخاصة في القضايا المتعلقة بالكهنة والأساقفة.

لقد وضح أن هذا الإخفاق لم يؤثر على غريغوري، ولم يثنه عن عزمه في اتخاذ الخطوة التالية، فقد أصدر أخطر مرسوم في تاريخ الكنيسة، وهو مرسوم دكتاتورية البابا، فلم يكن هذا المرسوم إعلاناً باستقلال الكنيسة فحسب بل ولكنه كان إعلاناً لسيادة البابا الذي يستلم سلطته من الرب رأساً، وكان أسلوب هذا المرسوم متغطرساً، فأما مضمونه فكان مماثلاً ومنافياً للطبيعة والعقل، ولاشك أن غريغوري كان واعياً تماماً للنتائج المحتملة لهذا المرسوم، لقد عمد غريغوري الآن إلى إعلان حرب علنية نهائية لا هوادة فيها، ولا رجوع عنها، والحقيقة أنه بالنسبة للرجل العصري الذي أصبح متحسساً ضد أي نوع من أنواع الدكتاتورية، سواء أكانت دينية أم سياسية، يبدو هذا العمل غريباً ووهمياً، وها نحن نعرض النص الكامل لهذا الإعلان.

لقد رسم: إن الرب فقط وليس غيره هو الذي أسس الكنيسة الرومانية.

إن الحبر الأعظم الروماني فقط هو الذي يحق له أن يعد شخصاً مسكونياً.

وإنه هو وحده الذي يستطيع عزل وتثبيت الأساقفة.

وإنه في حال انعقاد أي مجلس أو مجمع يعد مبعوثه، ولو كان ذا درجة دنيا فوق جميع الأساقفة، وله الصلاحية باتخاذ أي حكم بالعزل ضدهم.

إن البابا يمكنه عزل المتغيبين.

إنه ومن جملة أشياء أخرى، لا يجوز لنا أن نبقى في المنزل نفسه ونساكن أي شخص حرمه البابا.

لا يجوز لأحد أن يسن أية قوانين جديدة طبقاً للحاجة في جميع الأزمان إلاّ هو، هو فقط دون غيره.

وهو الذي يدعو إلى عقد المجامع الكهنوتية، وهو الذي باستطاعته أن يحول الرهبانية إلى دير، أو أن يقسم الأسقفية الكبيرة إلى أسقفيات صغيرة، أو أن يوحد الأسقفيات البسيطة في أسقفية واحدة كبيرة.

وإنه هو وحده الذي يجوز له استعمال الشارات الإمبراطورية.

وإنه لمن حق البابا أن يقبل الأمراء قدميه.

وإن اسمه هو الاسم الوحيد الذي يذكر في الكنائس، وإن اسمه هو الاسم الرفيع المقام في جميع أنحاء العالم.

وإنه هو الذي يستطيع أن يخلع الأباطرة.

وإنه يجوز له أن ينقل الأساقفة إلى حيث هنالك حاجة إليهم.

وإن له الحق أن ينصب أي كاهن في أية كنيسة يريدها، وإن الكاهن المنصَّب على يده يمكنه أن يتولى منصباً مشابهاً في كنيسة أخرى، شريطة ألا يقل هذا المنصب في درجته عن منصبه الحالي، وإنه لا يجوز لمثل هذا الكاهن أن يقبل رفع درجته على يدي أي أسقف آخر (عدا البابا).

وإنه لا يجوز لأي مجمع كنسي أن يتمتع بصفة مجمع عام رسمياً إلاّ بأمره، وموافقته.

وإنه لا يجوز عدّ أي كتاب أو أي فصل في كتاب كهنوتي قانونياً دون موافقته، أو تخويله السلطة بذلك.

وإنه ليس باستطاعة أحد نقض أي حكم يصدره، وإنه هو نفسه الذي يستطيع أن ينقض ذلك الحكم.

وإنه لا يحق لأي سلطة على هذه الأرض أن تحاكمه.

وإنه لا يحق لأي شخص أن يتجرأ بإدانة أي إنسان يلجأ إلى الكرسي البابوي.

وإنه يجب إحالة أية قضية بالغة الأهمية في كل كنيسة إليه، وإليه فقط.

وإن الكنيسة الرومانية معصومة عن ارتكاب أي خطأ، ولن ترتكب أي خطأ إلى أبد الآبدين، والكتاب المقدس على ما نقول شهيد.

وإنه عندما ينصبّ الحبر الأعظم بشكل قانوني يصبح قديساً دون أي شك أو ريبة، وذلك بفضل ونعمة بطرس الرسول، والقديس أبوديوس أسقف بافيا الذي يشهد على ذلك وآباء الكنيسة المقدسين الذين يتفقون معه في هذا الشأن، وذلك كما ورد في مراسيم البابا القديس سيمافوس.

وإنه بعد موافقته وأمره يجوز للآباء الأصغر مرتبة أن يوجهوا الاتهامات للآخرين، وإنه يحق له أن يخلع أو يعيد تنصيب الأساقفة دون دعوة أي مجمع كنسي، وإن كل من يعادي الكنيسة الرومانية لا يعدّ كاثوليكياً أبداً.

وإن بإمكانه أن يحلل الأتباع من واجبات إخلاصهم وولائهم للرجال الأشرار.

كان هذا المرسوم الذي دعي أصلاً بالمذكرة البابوية فاتحة تلك الدراما التي حدثت في القرون الوسطى، والتي شغل فيها الملك هنري الرابع، الذي كان قد بلغ الثلاثين من العمر، وغريغوري الأدوار الرئيسة، ولم يحدث في أي تاريخ مضى من تلك الحقبة أن تصرف البابا بذلك الشكل العدائي الساخر، والشجاعة التي بلغت حد القنوط، وكأن كل شيء أمامه قد أصبح في خطر، ليس البابوية فحسب بل المسيحية برمتها، وفي أثناء سير معركته ضد الملك استحوذ على البابا ذلك الشعور، وتلك الفكرة التي جعلته يدعي أنه لم يكن ملهماً، أو مدفوعاً من قبل التاريخ فحسب، ولكن بدعم من بطرس الرسول، والمسيح، لا بل حتى من الرب نفسه، ولو كان عمله هذا مجرد تمثيل لقلنا إنه قد بالغ في تمثيل دوره بشكل سيء أدى إلى خسرانه وإخفاقه، ولكن القضية كانت أكبر من ذلك بكثير، ففي أوج حماسته لإحراز السيطرة الكنسية تخيل غريغوري نفسه الخليفة الشرعي

لذينك النبيين العبرانيين المذكورين في العهد القديم، اللذين لم يكونا بالنسبة له مجرد بطلين أو زعيمي قضية في تلك المعركة الأبدية الخالدة بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية فحسب، بل كانا مثليه العظيمين اللذين يحذو حذوهما، وهما صموئيل، وإيليا، وكان هنري يمثل شاؤول وأهاب، الملكين اللذين ناضل صموئيل وإيليا ضدهما، وكان صموئيل يطلب الطاعة من الملك ليس باسم العرف والقانون، بل باسم الرب الذي كان صموئيل ممثله الرسمي، وهكذا حمل السيف بيده، وقتل باسم الرب الملك أجاج، الذي كان شاؤول قد صفح عنه وحماه، المثل الذي رأى غريغوري عليه أن يتبعه، ومع ذلك فإن غريغوري بما كان يشعر به من حماس عظيم، اعتقد أن صموئيل لا يصلح أن يكون مثله الكامل الذي يقتدي به، وذلك لاعتداله، وحتى خضوعه، بل شعر باقترابه من إيليا رجل الصحراء، ذلك النبي الهائج، معكر صفو السلم والرضا، والمنتقم الذي أرسله الرب، والذي كان مستعداً لرؤية المئات من كهنة بعل وهم يذبحون في ذلك القتال الجريء على جبل الكرمل، وهو الذي كان مطمئناً لاشتراك الرب معه، حتى أنه اعتقد أنه بإمكانه إنزال شواظ من نار من السماء، وهذه النزعة الزهدية التقشفية المستقاة من العهد القديم، وهذه الأمثلة القديمة من حياة الرهبنة أصبحت المثل الأعلى لغريغوري، ولا عجب أن دعاه بعض المعلقين المعاصرين «بالشيطان المقدس».

حقاً لقد كان غريغوري رجلاً تنتابه الهواجس على نحو غير سوي، فلم تكن نوبات الغضب الشديدة التي تعتريه، وانفعالاته منسجمة مع ذلك الجسم الضئيل الهش، لذلك الرجل الذي كان يجلس وجسمه لا يكاد يظهر على عرشه البابوي العالي، ولم تحفظ له أية صورة أو تمثال، وليس هنالك أية كتابات منقوشة على شاهد قبره في كاتدرائية سالرنو، مع أننا لا ننسى أن هنالك تماثيل كاملة يمكننا رؤيتها على قبور عدد كبير من البابوات، هذا وقد وصل إلى علمنا خبر وجود صورة منقوشة يقال إنها صورة غريغوري، لكن من الصعب التأكد أنها صورته، أو حتى صورة ترجع إلى عصره، وأما الصور

الموجودة في تواريخ فريزنغ فهي أيضاً ليست مقنعة، وهكذا فإن كل شيء حول هذه القضية متروك لخيالنا، وغني عن القول إنه ليس من قبيل الصدفة أن حبراً أعظم له تلك الصلات الوثيقة بعائلة بيرليوني، يختار تلك الشخصيات من العهد القديم، ليكونوا أبطالاً يباهي بهم ويتخذهم أمثلة، يحاكيها ويحتذي بها بإخلاص وبشكل طبيعي، وكان اندماجه بهؤلاء الأنبياء اندماجاً حقيقياً، حتى أنه أحياناً كان يقدم على التنبؤ بالمستقبل، ففي أثناء قداس عيد الفصح عام 1080م، حين كان النضال بينه وبين هنري الرابع في أوجه، أعلن بجدية ووقار أنه خلال سنة من الزمن سوف يموت هنري إذا لم يعمد إلى إطاعة أوامر البابا، فإذا لم تصدق هذه النبوءة فسوف يتنازل عن عرش البابوية (لم يمت هنري الرابع في ذلك العام، وظل غريغوري في مركز الحبر الأعظم)، وإن هذه التنبؤات التي كانت لا تخلو من التهور لابد أنها كانت مستحيلة الصدور عن رجل يحسب حساب المخاطر السياسية، ويتحرك بتعقل للتغلب على خصومه، ولكن ما من شيء من هذا القبيل كان موجوداً في غريغوري، فها هو يكتب إلى هنري وهو يفترض أنه مطيع للعرش البابوي كما يليق بأي ملك مسيحي، ويتوقع منه كما قال: «أن يؤثر عليك الخوف من الرب الذي يسيطر على حركات الملوك والأباطرة، أكثر من جميع مواعظي، كما وعليك ألا تنسى ما حدث لشاؤول بعد أن أحرز النصر بأمر النبي، كيف أنه بدأ بالتباهي، والتفاخر بنصره والهزء بالنبي وبعظاته، وكيف وبخه الرب وأنبه بسبب ذلك» وما كان هذا ليقال لملك كان قد ربح لتوه نصراً كاسحاً في معركة حاسمة ضد أعدائه الأشداء من السكسون، وكان يستعد لإنزال الهزيمة بخصمه الأخطر وهو البابا، وشطرت المعركة بين غريغوري وهنري أوروبا كلها إلى معسكرين متعادين، مقدمة بذلك شاهداً لا نظير له في التاريخ، فقد تواجهت قوتان غير متساويتين وجهاً لوجه، فمن جانب كان هناك ملك جبار، يقود جيشاً قوياً للغاية وهو بحق الوراثة والشرعية رأس الإمبراطورية الرومانية للأمة الألمانية، وهو ملك تسلم آباؤه التاج من البابوات، وفي الجانب الآخر رجل هزيل، لا ينبئ مظهره عن

أي قوة، مسلح بالقوى الروحية، هذا المركز الذي أمد غريغوري بقوى أعظم من قوى الملوك والجيوش، تحتوي منح البركة وإنزال اللعنة، وعلى هذا فالمعركة كانت ستقع بين السيف والتكفير، ولم يسبق أن وقع في التاريخ صراع بمثل هذه الإثارة والعنف، فقد شغلت المسيحية كلها وأجبرت الأرستقراطية والعامة ورجال الدين والعلمانيين أن يقف كل منهم إما مع الملوك أو مع البابا.

ابتدأ الصراع حرباً كلامية، تبودلت بها الوثائق والرسائل، وكانت أول رسالة كتبت في أيلول عام 1073م، بعد بضعة أشهر من انتخاب غريغوري كتبها ملك شاب غير مجرب، يتظاهر بالولاء للحبر الأعظم، بينما يحتقره من كل قلبه، ويستعد لمواجهته مواجهة كلية، إذ قال: «إلى السيد اليقظ المحبوب البابا غريغوري، الذي نصب بالمشيئة الإلهية، والشرف والكرامة الرسولية، يقدم هنري ملك الرومان بنعمة الرب، خدماته الواجبة المخلصة، وإن المملكة والكنيسة إذا كانت ستحكم حكماً صالحاً باسم المسيح، فهي بحاجة إلى دعم المسيح المستمر وكذلك أيها الأب والسيد المحبوب، يجب أن نتخلص من الفرقة والانقسام، وأن نتلاحم بنعمة المسيح، وذلك لأنه بهذه الطريقة دون غيرها يمكن للكنيسة، أن تظل متماسكة ووحدتها في قيود الحب والسلام»، ولم تكن هذه الصيغة للعلاقة بين الدولة والكنيسة لترضي غريغوري، الذي كان يعتقد أن كلاً من القوة الروحية والقوة الزمنية هما بيد البابا، وبيد البابا فقط، الأمر الذي يجعل الكنيسة العنصر المتفوق، وحملت بقية الرسالة التي كتبها الملك الشاب سمات الندم والأسى والأسف، وكان من المنتظر أن تؤثر في البابا إذ قال: «إني آسف لما وصلت إليه، أنا المذنب التعس إما بسبب طيش الشباب، أو بسبب المستشارين المخادعين، فلقد أذنبت ضد السماء، وأصبحت أتهم نفسي بعدم الولاء بالنسبة إليك، فلم أعد أستحق أن تدعوني ولدي، وإني لم أتعد على أملاك الكنيسة فحسب بل قد بعت الكنائس لأشخاص وجماعات غير محترمين، قد تشربوا سم حقد السمعانية، رجال لم يدخلوا البيوت من أبوابها، ولكن دخلوها بطرق ملتوية، وإني أعترف أني لم أدافع عن الكنائس كما كان من الواجب علي أن أفعل».

وكان هذا الاعتراف الكامل لخادم متواضع للكنيسة يحتوي طلب العفو ويطلب في النهاية تأييد البابا ودعمه «في جميع أعمالي»، كما قال في النهاية، ولكن سرعان ما تغيرت هذه اللهجة.

ولقد حدث حادثان عجلا بالمواجهة بين الرجلين، ففي ربيع 1075م أعاد البابا تأكيد مبادئه في قضية تقليد المناصب، فأوقف ثلاثة أساقفة ألمان عن عملهم في أسقفياتهم الهامة في: بامبورغ، وستراسبورغ، وسبير، وأضاف هذا الحرمان الموقت بلبلة جديدة وأحدث قلقاً بين صفوف الاكليروس الألمان، الذين لم يرق لهم انتخاب غريغوري، منذ البداية، وأما الملك الذي كان في وضع مقلقل عندما كتب رسالته إلى البابا عام 1073م فقد أصبح الآن في وضع سليم بعد أن انتصر في معاركه الكاسحة ضد السكسون، وهكذا لم يعد بحاجة لتهدئة غضب البابا، ولهذا دعم بشكل علني أسقفي: رافنا، وميلان اللذين عبرا عن رغبتهما وشوقهما للاستقلال عن البابا، ففي روما كان هنري يعتمد اعتماداً كلياً على النبيل سنسيوس، زعيم الحزب الموالي لألمانيا، والذي كان شديد المعارضة لغريغوري ولأسرتي البيرليوني والفرانجيباني وتلك الخطط التي وضعها البابا لتأمين السيادة البابوية.

وافتتحت الأعمال العدائية برسالة رسمية أرسلها غريغوري إلى هنري، كتبها في أوائل شهر كانون الأول عام 1075م قال فيها: «ننذرك بناء على حبنا الأبوي أن تقبل حكم المسيح، وأن تفكر ملياً بالخطر الذي يكمن في تفضيلك إجلالك لنفسك على إجلاله، وذلك بألا تكون سبباً في إعاقة سبيل حرية الكنيسة التي قضى المسيح أن يربطها بنفسه كعروس ربطت باتحاد إلهي سماوي، وأن تقرض الرب القادر، وبطرس الرسول قرضاً حسناً يزيد في استحقاقك للمجد، وذلك بإظهار ولائك وإخلاصك»، وكلف بحمل هذه الرسالة ثلاثة مبعوثين ألمان، أُمروا بأن يخبروا الملك أن أي عمل من أعمال العصيان سوف يجبر البابا على حرمانه كنسياً، أي أن جواب البابا التالي سيكون التكفير.

وبعد بضعة أسابيع، وفي عشية عيد الميلاد احتفل غريغوري بالقداس في كنيسة سانتا ماريا ماجوريا طبقاً للتقاليد الرسولية القديمة التي كانت تقضي بأن يقرأ البابا قداس عيد الميلاد في ثلاث كنائس في روما، وكانت الكنيسة تغص بالمؤمنين المتعبدين، وركع البابا أمام المذبح استعداداً لهذه المناسبة الجليلة، وحالما بدأ بالنهوض، ظهرت في الكنيسة فجأة زمرة من المرتزقة المسلحين، عندها صرخت بضع نسوة، فانتبه الناس الذين أصابهم الخوف والدهشة، حالما اتجه هؤلاء المتطفلون إلى المذبح بسرعة حيث كان غريغوري وهو غير عالم بهذا التدخل الفجائي، وفي بضع لحظات أمسكوه من شعره، وسقط التاج البابوي من على رأسه وسحبوه إلى خارج الكنيسة، وقد وضح للجميع أن هؤلاء المغيرين ومن يواكبهم من الذين يحرسونهم ويحتلون المراكز الاستراتيجية في الكنيسة هم من مأجوري سنسيوس، وذلك لأنهم كانوا يرتدون رنوك عائلته، ومع هذا فهم لم يتخذوا أي احتياط لإخفاء هويتهم وهوية المسؤولين عن تلك المؤامرة، فأخذوا غريغوري رأساً إلى أبراج سنسيوس حيث عومل البابا الذي كان ينزف بغزارة معاملة قاسية مذلة على يد سنسيوس نفسه، وبصورة خاصة على يد أخوات سنسيوس اللواتي كن يصرخن بفحش وقذارة وهن يوجهن الإهانات للسجين، وقد قيل إن غريغوري احتفظ بوقاره، ورباطة جأشه، موقناً أن أسرته سرعان ما سوف تعرف مكانه، وأين ستجده، هذا وقد أرسلت الرسل بسرعة إلى كاسا بيرليوني وإلى مسرح مارسيلوس، وإلى جميع مواقع القوة والأبراج البيرليونية، وسرعان ما تحرك جمهور كبير من المليشيا ومن عامة الشعب الذين ساءهم هذا التدنيس القذر للمقدسات، فزحفوا باتجاه برج سنسيوس، وبعد الاستعانة بالآليات والرجال فتحت ثغرة في السور، ووجد البابا في إحدى الغرف يحيط به جلادوه، عندها تحقق سنسيوس أن نهايته قد دنت، وأن الرعاع والغوغاء، سوف يقذفون به إلى نهر التيبر، لذلك خرّ راكعاً على ركبتيه، وطلب الغفران والصفح من غريغوري، وكان غريغوري قد عانى من تجارب سالفة مشابهة (وسوف يعاني في المستقبل) لذلك تذكر

بسرعة دوره «كحام للضعفاء» وكمسامح رحيم للمؤمنين التائبين، فأسرع للحيلولة دون وصول الرعاع الغضاب إلى سنسيوس، وأعلن القرار البابوي بالعفو عن جلاده الذي لم يعد يدري ماذا يفعل، وكانت العقوبة التي فرضها الحبر الأعظم على سنسيوس للتكفير عن ذنوبه هي الحج إلى بيت المقدس (لقد فكرت بهذه الحادثة عندما كنت أسير على ضفاف التيبر في روما، فاكتشفت أن هنالك على بعد بضعة أبنية كبيرة أمام بونتو فابريكو، وهي المدخل إلى تراستفيري، يوجد زقاق يدعى لونجوتيفيري دي بيرليوني، بينما هنالك وبجوار المكان الحامل لذكر آل بيرليوني، وعلى بعد كتلتين من الأبنية يدعى الزقاق لونجوتيفيري دي سينس، وهكذا نرى أن الأعداء السالفين قد أصبحوا جيراناً مسالمين في القرن العشرين).

ولاشك أن محاولة اغتيال غريغوري في عشية عيد الميلاد كانت بناء على أمر وإيعاز من هنري الرابع، فقد كان قتل البابا هو أسهل طريقة للخروج من كثير من المشاكل، ولقد كان ذلك العمل سهلاً ولكن نجاحه كان محفوفاً بالمخاطر، وعاد بعد هذا البابا والدم لا يزال ينزف من جبهته، إلى كنيسة سانتا ماريا ماجوريا حيث حيته الجماهير المحتشدة بحماس وتبعته، وقد غصت الكنيسة على رحبها بالمصلين المتحمسين الذين أخذ منهم العجب كل مأخذ من هذا البابا العظيم بقامته القصيرة، ونحفه، ودمامة شكله، وسمرة بشرته، ولكنه مع ذلك كان مثيراً للإعجاب، حينما وقف أمام المذبح في عشية عيد الميلاد عام 1075م ليحتفل بالقداس وكأن شيئاً لم يحدث، كأنه لم يكن يشعر بأي ألم، فقد كانت تلك الساعة هي ساعة الكرامة والنصر، فها قد أظهر الرب الحق وميزه عن الباطل، فقد خذل سنسيوس، وهنري، وكلمه العصاة، وأنقذ النبي بإرادة الرب، وأصبحت الطريق أمام غريغوري أوضح ما يكون بشكل لم يسبق له مثيل في ذلك اليوم من أيام عيد الميلاد، هذا وقد علم غريغوري الآن أن أفضل جواب منطقي ومحتشم، ومبجل جليل يبعثه إلى هنري هو «الحرمان الكنسي».

أعلن هذا الحرمان الكنسي بعد بضعة أشهر في شباط 1076م لتجسيد المسيح، فقد عُقد المجمع الكنسي في كنيسة مخلصنا والتي تدعى القسطنطينا (أي سينت جيوفاني في

اللاتيران)، وحضر هذا المجمع عدد كبير من الأساقفة ورؤساء الأديرة والاكليروس، والعلمانيون من جميع الإخوانيات، وكان أول عمل للمجمع أن حُرم سيغفريد أسقف ميانس، لأنه هو الذي حاول قطع العلاقة بين أساقفة ورؤساء الأديرة في ألمانيا، وبين الكنيسة الرومانية المقدسة، الكنيسة الروحية الأم، وتلا ذلك تلك الخطوة الحاسمة، وهي أول خطوة من نوعها في تاريخ الكنيسة والبابوية عندما أنزلت ضربة الكنيسة القاصمة على ملك ألمانيا القوي، ونورد هنا نص الحرمان الكنسي، مختصراً: «إنه ابتغاء رفع شرف الكنيسة والدفاع عنها، وباسم الرب القادر، وباسم الآب والابن والروح القدس، ومن خلال قدرة ربنا وسلطانه أعلن حرمان الملك هنري ابن الإمبراطور هنري الذي تمرد ضد الكنيسة، بوقاحة لم يسبق لها مثيل، إني أحرمه من حق الحكم والسلطة في جميع أنحاء مملكة ألمانيا وإيطاليا، وإني أحل جميع الرجال المسيحيين، من قسم الولاء الذي كانوا قد أقسموه أو سيقسمونه له، وإني أمنع أي إنسان أن يعامله معاملة الملك، أو أن يخدمه كملك، لأنه قد حق على كل من تحدثه نفسه بالانتقاص من شأن الكنيسة ومجدها الخسران المبين لكل تقديراته، ولما كان قد شق عصا الطاعة كمسيحي، لذلك قررت أن أقيده بقيود الحرمان الكنسي باسم الرب حتى تعلم جميع الأمم أنك أنت يا بطرس الذي بنى ابن الرب القادر الحي الكنيسة على صخرته، تلك الكنيسة التي لن تفتح أمامها أبواب الجحيم».

لم يكن الحرمان مجرد جواب لما حدث عشية عيد الميلاد فحسب بل كان عبارة عن ردة فعل لبعض الإجراءات التي كانت قد حدثت في ورمس، حيث طلب الملك ومعه أربعة وعشرون أسقفاً من البابا أن يتنازل عن عرش البابوية، ولم يصدف أن أرسلت أية رسالة من قبل الملك تبلغ هذه الدرجة من الصلف، حين كتب هنري يقول: «من الملك المنصب من قبل الرب دونما اغتصاب، إلى هلد براند الذي لم يعد حبراً أعظم بل راهباً كاذباً»، واستطردت الرسالة تقول: «لقد استحققت هذه التحية أنت الذي أثرت الفتنة والاضطرابات والقلق، أنت الذي لا تزال تلعن بدلاً من أن تبارك، دعني أختصر القول:

إنك قد جردت رؤساء الأساقفة والكهنة من مراتبهم، وجعلتهم عبيداً أرقاء دونما سبب، ولا رغبة، وإنك تدعوهم جهلة، بينما أنت تدعي العلم الشامل، ولقد تحملنا كل هذا إكراماً للمقام الرسولي، ولكنك عددت احترامنا لك خوفاً منك، ولقد ثرت ضد السلطة الملكية التي وهبت لنا من قبل الرب، وقد هددتنا أن تحرمنا من هذه السلطة، كما لو أن الحكم والرسم بيدك لا بيد الرب، ولقد دعانا المسيح لنكون على هذه المملكة، ولكنه لم يدعُك أنت لتكون حبراً أعظم، إذ حصلت على هذا المنصب بالدهاء والغش والخداع، ولقد احتقرت أرديتك الكهنوتية، وحاولت أن تحصل على نعمة الرب بالمال، وباستعمال القوة العارية المفضوحة، ووصلت إلى عرش البابوية، إلى عرش السلام الذي نزعت منه صفة السلام، وأنت تُسلح الناس ليحاربوا ضد السلطة، وتعلن حقارة الأساقفة الذين نصبهم الرب، وأنت تسمح للعلمانيين أن يلعنوهم ويعزلوهم من مناصبهم، وأنت تود لو عزلتني، فأنا الملك البريء الذي لا يمكن أن يحاكم إلاّ من قبل الرب، وهاهم الأساقفة قد تركوا محاكمة حتى يوليان المرتد إلى الرب، أليس من أقوال بطرس الرسول: احترموا ووقروا الرب واخشوا الملك، والآن ولأنك لا تخشى الرب، لذلك أنت تحاول أن تنال مني ومن شرفي، إن حرمان القديس بولص جدير بك وليس بي، فلقد أدانك جميع الأساقفة، ولذلك عليك أن تنزل عن العرش الرسولي الذي اغتصبته اغتصاباً حتى يستطيع أن يحتله شخص آخر جدير به، ولا يدنس الدين ولا الإيمان، ولذلك فإنني أنا هنري الملك بنعمة الرب، أقول لك باسم جميع الأساقفة: انزل، انزل».

حمل هذه الرسالة التي تعد وثيقة فريدة من نوعها، بما احتوته من إهانات موجهة إلى رئيس الكنيسة الرومانية، أحد رجال الاكليروس، المدعو رولاند، الذي خاطب المجمع المنعقد في كنيسة اللاتيران في روما بأقوال تدل في صراحتها ووقاحتها أن رسول الملك كان رجلاً بسيطاً ساذجاً، إذ قال: «إن ولي نعمتي وسيدي الملك بالاتفاق مع الأساقفة الذين يحكمون فيما وراء جبال الألب يأمرك أن تنزل عن عرشك حالاً، إذ أنه لا يجوز لأي

شخص أن يحتل هذا العرش دون موافقة الملك، والأساقفة، وأما أنتم يا اخوتي (قالها مخاطباً الأساقفة) فإني أحمل لكم دعوة أن تمثلوا أمام ولي نعمتي الملك في وايتسفتايد حيث سيقدم لكم حبراً أعظم جديداً، لأن هذا الذي بينكم ليس بابا، وإنما هو ذئب مسعور»، وعند سماع هذه الأقوال المهينة، اقترح كاردينال بورتوس اعتقال هذا الرجل فوراً، وأما حاكم روما فقد استل خنجره وهجم على هذا الساذج المغفل الذي ظهر أنه كان ينتظر المديح والإطراء، لكن غريغوري وللمرة الثانية اختار أن يصون حياة هذا المذنب الذي أهانه، وحدثت هذه الحادثة في الاجتماع نفسه الذي أعلن به حرمان هنري، هذا وقد كانت الإمبراطورة أغنس والدة هنري حاضرة عند تلاوة وثيقة الحرمان، وأصغت بانتباه واحترام، ولم تخنها أية دمعة، ولم تتقلص أية عضلة من عضلات وجهها في اللحظة التي سمعت بها إدانة ولدها من قبل البابا.

عقد مجمع ورمس، في ايتسلنتايد، ولكن بدلاً من أن يظهر المجمع انتصار الملك ثبت أنه أخفق إخفاقاً كبيراً، لقد كان هنري وحيداً، وظهر أن قرار البابا بحرمانه أبطل قراره بعزل البابا وألغاه، وهكذا انفض عنه الاكليروس والنبلاء، وبدأت سكسونيا تتحرك وتجد حلفاءً جدداً، وتجددت المشاكل التي كان هنري قد ظن أنها خمدت وانتهت، فقد سُمي رودولف صاحب سوبيا ملكاً معارضاً، لأن هنري لم يعد ملكاً مناسباً ما دام أنه لم يحصل على عفو وغفران البابا، وفوق ذلك فقد دعي غريغوري ليرأس مجمعاً جديداً أزمعوا عقده في مدينة أوجسبرغ البافارية للمناقشة في أمر جدارة الملك، وبينما كان الأمراء الألمان مجتمعين في تريبور كان هنري في أبنهايم وحيداً أشبه بالسجين، محروماً من السلطة والأبهة، ولاشك أنه ملك آنذاك الكثير من الوقت، وأنه فكر ملياً في تلك الحوادث الماضية عندما جلس والده في مدينة سوتري لمحاكمة قريب هلد براند، وهو غريغوري السادس، وكان سبباً في نفيه، والآن دار الزمن دورته، وجلس هلد براند نفسه على عرش البابوية باسم غريغوري السابع، ليحاكم الملك هنري ويسبب نفيه في عقر

داره، وذهب المؤرخ تونبي إلى أبعد ذلك، فادعى أن دوافع غريغوري النبيلة قد لطفتها وخففتها رغبة في الانتقام من السلطة الإمبراطورية لقاء ذلك الإذلال الذي ألحقته هذه الإمبراطورية بالبابوية المنحلة المتفسخة في مجمع سوتري عام 1046، ويزيد من قيمة هذه الفكرة ويعززها أنه عندما لبس هلد براند التاج البابوي، اتخذ اسم غريغوري، ذلك الاسم الذي كان يحمله حبر أعظم عزل بهذه المناسبة (وإذا كان الأمر كذلك فإننا نكون قد عالجنا قضية أحد أفراد أسرة بيرليوني، وهو يباشر أخذ الثأر لفرد آخر من الأسرة، أضمر له كل محبة، والتصق به بإخلاص عميق) ووضح لهنري الآن أنه ليس من مصلحته أن تتم المقابلة بين غريغوري والنبلاء الألمان، ولم يكن أمامه سوى طريق واحد لمنع هذه المقابلة، وهي أن يقابله هو شخصياً أولاً، ولكن ليس بصفته ملكاً يطلب حقوقه، بل كمذنب تائب يطلب الغفران والصفح عن ذنبه الذي اقترفه وهو العصيان والتمرد.

في هذا الوقت كان غريغوري قد ذهب إلى لومبارديا ليقابل بعض الحرس الذي كان سيواكبه في رحلته إلى ألمانيا، وعندما تأخر الحرس قرر أن ينتظر في مكان أكثر مواءمة وودية، فحل في القلعة المحصنة العائدة لابنته المحبوبة في المسيح ماتيلدا، وهي كونتيسة توسكانيا الفتية، وكانت أغنى وأقوى امرأة في ذلك الوقت، وكانت ماتيلدا هذه وأمها بياتريس أرملة بونيفيس صاحب قلعة كانوسا، وقد ورثت أملاكاً من وادي البو جنوباً حتى وادي آرنو الذي يتصل بالأملاك البابوية، وبالإضافة لهذه الأملاك، فقد كان لهما ممتلكات منتشرة في اللورين، وفي جميع أنحاء إيطاليا، وعندما توفي بونيفيس تزوجت أرملته من ابن عمه غودفري دوق اللورين الأعلى، وظهر أن زواج ابنتها الجميلة الفتية التي كانت في الثالثة والعشرين من العمر من أخيها لأبيها غودفري الذي كان أحدب الظهر أمراً تغلب فيه النفعية والمصالح الذاتية، (مع أنه بالنسبة إلينا أشبه ما يكون بالسفاح المحرم)، وهكذا كان هذا القران غير متكافئ ليس بالنسبة للسن فحسب، بل بالشكل والمصالح، فقد كان غودفري هذا يفضل الالتفات إلى اللورين، وإلى السياسة الألمانية بدلاً من الاهتمام بالحياة

المنزلية والواجبات الزوجية، وهكذا بقي الزوجان دون أن ينجبا أطفالاً، والحقيقة أنهما قلما اجتمعا أو رأيا بعضهما بعضاً، وبمرور الزمن توفيت والدتها، وتوفي زوجها، وبذلك أصبحت ماتيلدا الوريثة الوحيدة لثروة واسعة، وقطع هائلة من الأملاك، وبينما اختار زوجها التشيع سياسياً لهنري وللمصالح الألمانية، نجد أن ما تيلدا قد اختارت غريغوري وحركة الإصلاح البابوي، وقد بدأت الأقاويل والإشاعات تنتشر حول علاقة ماتيلدا الجميلة بغريغوري، وأنهما كانا مرتبطين بشيء أكثر من المصالح العامة المشتركة والإيمان والورع، وليس هناك من شك بأن هذه الإشاعات كانت جزءاً من حملة للتضليل مغرضة ضد غريغوري، فقد افتري على بعض البابوات أثناء حياتهم بلؤم، ومع أن ماتيلدا كانت لا تزال في شرخ الشباب وريعان الصبا دون أطفال، امرأة تستطيع أن تحب وأن تطلق العنان لعواطفها المشبوبة، وفي الحقيقة إنه ليس لدينا أقل برهان أو إثبات عن وجود أي شيء ما عدا أنقى وأطهر الدوافع التي جعلتها تلتصق بالبابوية وتصبح من المحسنين إليها، ويظهر أنه لم يصادقها الحظ في قضايا الحب، إذ عندما أصبحت في الثالثة والأربعين من العمر اقتنعت بالزواج، وفي هذه المرة من شاب في السابعة عشرة من العمر اسمه جو بليف، وكان هذا الزواج زواجاً تغلب عليه المصالح السياسية، فالرواية الشاملة العظيمة عن حياة هذه المرأة لا تزال تنتظر من يكتبها، لكن ليس بوسع أحد سوى شاعر ملهم عظيم أن يعبر عن قلب هذه المرأة، فالوثائق واللوحات غير المتقنة لا تكشف سوى أهميتها بالنسبة للشؤون البابوية، وإخلاصها وولائها الكامل لغريغوري.

وبتأييدها المالي للإصلاح البابوي وجدت ماتيلدا نفسها شريكة وصديقة لآل بيرليوني، وهي أسرة غريغوري، وكتب زيما الجزويتي حول ذلك ما يلي: «على الرغم من كل القذف والتشهير الذي افتعله أعداء الغريغوريين بخصوص الشؤون المالية البابوية، إلاّ أن هنالك جوهراً من الحقيقة وهو أن نقود آل بيرليوني سواء جاءت على شكل هبات، أو على شكل قروض كانت توضع في وقت الحاجة تحت تصرف البابا، مع أن مصادرنا

لا تشير إلى مبالغ معينة بذاتها»، وكان اشتراك ماتيلدا التوسكانية مع آل بيرليوني، والتضحيات التي قدمها الطرفان بهباتهما للكنيسة له أوسع الآثار، حتى أن أموال ونقود هذه الأسرة المتحولة كما قال زيما: أسهمت في أحوال ودرجات حاسمة، وقد أثرت في تحويل التيار ضد أي رجل رفع رأسه معارضاً البابا في روما أثناء تلك المدة، فالعلاقات كانت أكثر من علاقات مادية، ففي حالة آل بيرليوني كانت العلاقات عبارة عن روابط أسروية، أما بالنسبة إلى ماتيلدا، فقد كانت علاقات ولاء، وإخلاص حقيقي لرجل عظيم، ولقضية عظيمة، ولهذا نجد أنه لأمر طبيعي أن يختار غريغوري أن ينزل مؤقتاً في ضيافة ماتيلدا في قلعة كانوسا الحصينة في جبال الابنين ليترقب الحوادث التي لم يكن ليعرف عنها شيئاً.

ووصل البابا ومعه بطانة كبيرة بينها سنسيوس فرانجيباني، وألبيريك بيرليوني اللذين ذكرتهما ماتيلدا في وصيتها ووصفتهما بأنهما صديقان حميمان لغريغوري، وقد وجد غريغوري هنالك بانتظاره هيوج راعي دير كلوني ومستشار ماتيلدا الروحي، والأب الذي كان يتلقى منها الاعتراف، وأنسلم أسقف لوكا، وماتيلدا، وقد ظهرت فجأة فتاة في ريعان الشباب مشرقة ومتألقة على استعداد للوقوف إلى جانب غريغوري، وكانت بذلك أشبه بربة للحرب مستعدة للقتال دفاعاً عن مبادئ دير كلوني، تلك المبادئ التي أصبحت قضية روما وشغلها الشاغل، فقد كانت تراقب معركة غريغوري عن كثب وباهتمام أكثر من عادي، فطالما حضرت جلسات المجمع العظيم المنعقد عام 1074م حين أعلن غريغوري أول إصلاحاته الكنسية، ولاشك أن المناقشات في كانوسا اتجهت فوراً نحو الخطوة التالية في معركة التتويج، ولكن سرعان ما توقفت هذه المناقشات بوصول أخبار مثيرة، لم تكن بالحسبان، فقد جاء أن هنري في طريقه إلى كانوسا، ويذكر جميع المعاصرين أن شهر كانون الثاني عام 1077م كان شهراً قاسياً جداً، وقد سلك هنري طريق ممر جبل سِنِس، وهو من أصعب الممرات عبوراً، خلال جبال اللب، خصوصاً في ذلك الفصل، ولهذا اضطرت

زوجته وابنها أن يتدثرا بجلود الفراء، وانسابت بهم الزحافات عبر الأنهار الجليدية، بينما ظل الملك ومعه بطانة قليلة العدد يزحف عبر ذلك الممر المخيف حتى وصل إيطاليا، ولقد حيّا النبلاء الألمان والأساقفة مقدم الإمبراطور بسرور وابتهاج، إذ أنهم ظنوا أنه قد أتى متحدياً البابا ومستعداً لدعوتهم لخوض المعركة ضد ذلك البابا الذي زاد كرههم له الآن بعد إعلانه حرمان الملك، ولم يعلموا أن الملك قد أتى تائباً، هذا ومن الملاحظ أن بعض المؤرخين ينظرون إلى استسلام الإمبراطور في كانوسا نظرة انتقادية متزايدة، ذلك الاستسلام الذي أصبح شعار السياسة ونداءها ضد فرنسا زمن بسمارك «لن نذهب أبعد من كانوسا»، ويعتقد هؤلاء المراقبون أن هذه الرحلة وهذا الحجم الذي بدا به الإمبراطور مذنباً ذليلاً لم يكن إلاّ جزءاً من حفلة تنكرية قصد بها إخفاء مقاصد وحركات سياسية محسوبة بذكاء ودهاء، واستهدف أن تظهر بمظهر التواضع الذليل والتوبة، ولكن هنالك كثير من النقد لهذا التفسير الذي تعوزه الوجدانية، ورقة العاطفة والإحساس.

وأخيراً ظهر الملك ومعه زوجته وابنه وخدمه أمام قلعة كانوسا، وكانت هذه القلعة غاية في الحصانة لا يحيط بها سور واحد فحسب بل ثلاثة أسوار مع ما يتبعها من الخنادق والفخاخ ووسائل الدفاع الأخرى التي كانت معروفة في العصور الوسطى، وعندها طلب هنري السماح له بالدخول، ليس كملك بل كمذنب متضرع ومتوسل، وقد بقي ثلاثة أيام متتالية تبدأ باليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني واقفاً أمام أسوار القلعة، وهو يرتدي قميص صوف فوق معطفه المصنوع من الفراء، وقميص الصوف هذا كان يرتديه المذنبون التائبون، وكان يلبس خفاً بسيطاً في قدميه (إنه لمن غير المحتمل، وكما يدعي بعض الكتاب الرومانتيكيون أن يكون قد قضى ثلاثة أيام بلياليها، لا يلبس إلاّ قميصاً، وقدماه عاريتان في طقس ثلجي، حيث تهبط درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر، إذن لكان تجمد ومات فعلاً)، ولكن الحقيقة أن هذا العمل رمزي، وأن ملك ألمانيا الجبار كان واقفاً خارج القلعة، في الطقس البارد يطلب الغفران، فلو كانت هذه الحركة قد خططت كحركة سياسية في

لعبة شطرنج ، فالحركة التالية قد تركت للبابا ، وأصبحت محتومة ، إذ مهما بلغت عواطف غريغوري الشخصية وشكوكه ، وجب عليه الآن أن يستسلم ويلين ، فمن الواجب أن يُظهر بابا الكنيسة المسيحية الرحمة والسماح للمذنبين ، فمن يستطيع أن يطلع على الأفئدة ليحكم أن توبة هذا هي توبة غير نصوح يا ترى؟ وإن مجرد إجبار الملك على الانتظار ثلاثة أيام يثبت أنه كانت هنالك مداولات ومناقشات حامية داخل القلعة ، فقد ظهر أن ماتيلدا ومعها هيوج وأنسلم كانوا يحاولون إقناع غريغوري بالاعتدال واللين ، وهنالك لوحة يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر الميلادي تصور حياة ماتيلدا (موجودة في مكتبة الفاتيكان) وهي تظهر هنري وهو يطلب من هيوج وماتيلدا أن يتدخلا لمصلحته ، ولكن لا يعرف تماماً إذا كان هذا الأمر قد حدث فعلاً ، والذي حدث هو أنه في اليوم الرابع ، (في الثامن والعشرين من كانون الثاني) رضخ البابا ، وسمح لهنري بالدخول إلى القلعة حيث استقبله بحضور كل من كان في القلعة من جماعة البابا .

وصف هذا المنظر مراراً أنه ما أن دخل البابا حتى سجد الملك أمامه بخضوع ، وبدأ يقوم بحركات تشنجية مصحوبة بالدموع كما لو أن توبته تسبب له الآلام والرعشات ، وعندما رأى البابا هذا المنظر ، وهذا الخضوع الواضح ، قيل إنه بلغ به التأثر حداً جعله يذرف الدموع أيضاً ، ولكنه لم يعانق الإمبراطور (هنالك محاولات مضحكة لمقارنة هذا المنظر بالمقابلة التي حدثت بين يعقوب وأخيه عيسو الذي كان حاول قتله ، وقابله عند نهر يبوق [من فروع الأردن] في تلك القصة التوراتية التي تصف إعادة لمّ شمل الأخوين) ، وهنا بدأ البابا وقد تمالك أعصابه وسيطر على الموقف مدركاً الأهمية التاريخية لهذه المقابلة ، (لم تكن إلاّ مواجهة بين شخصين وليس بين مبدأين) وطلب من الملك أن ينهض ، فوقف الملك أمام غريغوري النحيل القصير القامة ، بقامته التي تزيد حوالي القدم عن قامة البابا ، ولكن مع ذلك فقد كان يبدو في مقام وضيع مجرد ملتمس ، متوسل ، تائب ، ليس حاكماً ، عندها طلب غريغوري أن

يطلبوا له رقاقة من خبز القربان المقدس[1]، وبإيماءة كلها جلال وتحد أخذ الرقاقة وقسمها نصفين وقال: «فلينزل علي غضب الرب وليتحول هذا الخبز إلى سم يقتلني إذا كانت الاتهامات التي اتهمت بها صحيحة، أو إذا كانت واحدة فقط منها صحيحة» ثم أخذ الرقاقة ببطء ووضعها في فمه، وهو يدعو العدالة الإلهية للانتقام منه، تماماً كما فعل النبي إيليا في موقف مشابه عندما دخل في نزاع مع الكهنة الوثنيين، وبعد أن ابتلع الرقاقة وانتظر مدة كافية حتى ينال عقاب الرب وضربته، إذا بكل من كان حوله يصفقون ويهتفون بفرح، وهم ينظرون بإعجاب وإكبار لحبرهم الأعظم وسيدهم الذي تحدى أقاويل الناس وأحكامهم، ولم يخضع لأحد سوى للرب نفسه، وعندما توقف التصفيق والهتاف، أخذ غريغوري النصف الثاني من الرقاقة وسلمها لهنري، فإذا قبلها يكون قد تحلل من الحرمان، وقيل إن الملك تردد قبل أن يبتلع الرقاقة مدة طويلة خوفاً من إمكانية حلول العقاب الإلهي به، وهذا يجعل هذه القصة بأجمعها مجرد حادث من حوادث القرون الوسطى النموذجية إذ أنه بعد خمسين عاماً، وفي بداية القرن الثاني عشر المشهور بالأفكار التشككية والعقلانية التي انتشرت أثناءه لم يعد حدوث مثل هذا المنظر ممكناً على الأقل بين الطبقات العليا في المجتمع، لكن كان الأمر مختلفاً في القرن الحادي عشر حين كانت تلك السلسلة المتصلة الحلقات، ابتداء من الجحيم إلى الخطيئة المميتة التي يستحق أصحابها العقوبة السرمدية، والتي كانت تمثل في الصور واللوحات التي رسمت في العصور الوسطى، والمنحوتات التي تصور يوم القيامة المريع، كل هذه الأمور كانت لا تزال حقيقة مقدرة، وأخيراً ابتلع الملك الرقاقة ولم يحدث له شيء وعفا عنه البابا وسامحه، ووضح أن الرب قد أذن بالوقت نفسه بالتوبة والغفران، ولكن لم يصدر عن الحاضرين أي تصفيق أو هتاف، وسرعان ما رحل الملك وأسرته من كانوسا، وقد كتب غريغوري ما يلي: «عندما غادر

(1) رقاقة مدورة من خبز فطير تستعمل في العشاء الرباني.

هنري القلعة، حيث تنكر لكرامة بلاده، وعظمة أجداده وأسلافه، أصبح كأنه رجل استيقظ لتوه من كابوس شديد، فقد استقبل بالصمت المطبق في لومبارديا، وانفض اللومبارديون الذين كانوا لا يزالون تحت السلاح عنه، أما الكونتات والأساقفة فقد أداروا له ظهورهم أو استقبلوه بفتور، فقد رفضت المدن التي كانت الأفكار الجمهورية قد بدأت بالانتشار بها أن تأويه وزودته بالطعام تدريجياً من وراء الأسوار، وهكذا انتشرت في إيطاليا موجة من النوايا السيئة، فقد خان الملك تاجه، وكان أفراد الشعب على استعداد للالتحاق به والقتال معه ضد عدوهم المشترك، لو لم يعقد تلك المعاهدة المذلة مع البابا، وقد فكروا أنه من الأفضل خلع هنري، وتنصيب ابنه الصغير كونراد ملكاً بدلاً منه، والزحف تحت إمرة هذا الملك الصغير إلى روما، حيث يطردون غريغوري وينتخبون بابا جديداً.

وكان الملك هنري قد وقع الإعلان التالي في كانوسا: «تبعاً للشروط التي سوف يمليها سيدنا البابا غريغوري، وتجاوباً معها سأقوم أنا الملك هنري إما بفض الخلافات وإزالة أسباب النزاع والشكوك ضدي مع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والدوقيات، والكونتات، والأمراء، أو أن أتعهد بإجراء اتفاقية طبقاً لنصيحته، ما لم يعقه عائق إيجابي أو يعقني، وعندما يتم إبرامها سأكون على استعداد لتنفيذها، وإذا رغب مولانا البابا غريغوري نفسه أن ينتقل إلى ما وراء جبال الألب، أو إلى أي مكان آخر، فسوف تؤمن سلامته ضد أي أذى أو ضرر تعرض له حياته أو أعضاء جسمه أو خطر الأسر وذلك له شخصياً ولجميع من يكونون برفقته، أو من ينتدبهم، أو بالنسبة لأي شخص ينوي زيارته من أي مكان، سواء كان ينوي الإقامة أو ينوي الرجوع، وذلك عهداً علي وعلى كل من هم تحت سلطتي وأمري، ولن يحدث أيضاً أن يناله بموافقتي أي مساس بشرفه، وإذا حدث وحاول أحدهم الاعتداء عليه فلسوف أخف لمساعدته بكل ما أستطيعه من قوة».

إن هذا الإعلان يبدو وكأنه اتفاق بين سلطتين، فها قد ذهبت تلك الدموع، وذلك الركوع المهيب، وتلك الصلوات أدراج الرياح وبدا هذا الإعلان واقعياً، وعملاً رصيناً بين دولتين، واختفت لهجة الندم، ولا عجب أن تجد أن تأثر المؤرخين المعاصرين لإذلال كانوسا، كان أقل شأناً من تأثر المؤرخين والكتاب في القرن التاسع عشر مثلاً، فبعد حرمان هنري الدرامي بدأ العد العكسي.

مضت ثلاثة أعوام حاسمة أصيب غريغوري خلالها بالتردد والتقلص، بينما عمل هنري بنشاط، فقبل الرجوع إلى ألمانيا، عمل على استرضاء وتلطيف اللومبارديين الذين كان قد خاب أملهم وجعلهم حلفاء من جديد، وأقنعهم أن قسمه في كانوسا، لم يكن إلاّ نوعاً من المجاملات المؤقتة، وأنه لا يزال معارضاً للبابا، لذلك وحّدهم كرههم المشترك لغريغوري في هدف واحد متبادل، ورجع هنري إلى وطنه، وكأن شيئاً لم يكن، وعادت له كرامته الملكية، ولم يعد يشعر بأي حرج أو أي إذلال نتيجة للحوادث السالفة، وجعل كل إنسان من رعيته يفهم أنه قد تحرر من حرمان البابا وأنه أصبح مستعداً لبناء وطنه، وأصبح الوضع معقداً بالنسبة إليه، إذ أن النبلاء البعيدين في مملكته كانوا قد انتخبوا رودولف صاحب سوابيا ملكاً، وعدّوا هنري معزولاً، ولكن هنري قرر أن يتجاهلهم.

وأما تردد غريغوري خلال هذه المدة التي كانت أكثرها ضعفاً في حياته فما كانت لتدوم إلى الأبد، لهذا قرر أخيراً أن يتصرف واختار أن يعترف برودولف منافس هنري ملكاً مناوئاً لهنري، وهكذا بدأت المعركة من جديد، وهكذا عاد غريغوري وحرم هنري مرة ثانية في مجمع كنسي روماني عقد في آذار 1080م، وكان الإعلان الطويل والغريب محاولة لتسويغ أعماله فضلاً عن محاولة تفسير الحوادث التي حدثت بعد كانوسا، حين قال: «لقد أتى هنري إليّ وكله ارتباك وكله ذل، وهو يتوسل أن أعفيه من حرمانه، وعندما شاهدت تذلله، وبعد أن قدم وعوداً مخلصة بتغيير طرق حياته أرجعته إلى حظيرة الجماعة، ولكني لم أعده إلى السلطة الملكية التي كنت قد عزلته منها في مجمع روماني»،

وتلا ذلك الصيغة العادية لمرسوم الحرمان الجديد، ذلك الحرمان الذي أصبح مبتذلاً بعد أن تكرر بهذا الشكل، ونسمع أخيراً هذه التهديدات «ولتنزل على هنري المذكور آنفاً حكمك وغضبك حتى يعلم الناس جميعاً أنه قد سقط وسحق ليس صدفة بل بقدرتك وسلطتك أيها الرب، وليس لديه إلاّ التوبة والندم حتى تنقذ روحه يوم الحساب».

لم يسقط هنري الملك المخلوع، بل سقط رودولف الملك الذي اعترف به البابا وباركه، سقط في معركة خاضها ضد السكسون بعد أن أصيب بجرح بليغ سبب موته (يُرى الهيكل العظمي الأسود لذراعه بعد أن قطعت يده، والذي يفترض أنه رفع هذا الذراع كما لو كان يقوم بأداء القسم في كاتدرائية ميرسبيرغ)، وهكذا فقدت لعنة غريغوري قوتها وسحرها، وفوق ذلك عين هنري ويلبرت أسقف رافنا، وهو رجل ذو بصيرة وعلم كبير، حبراً أعظم منافساً للبابا، وقد لاحظ أحد المؤرخين في ذلك الزمن وقبل موت رودولف أن كل شيء كان مزدوجاً، فهناك ملكان، وبابوان، ومجموعتان من الأساقفة، واستعد هنري هذه المرة لعبور جبال الألب وكان الهدف روما والبابوية.

وكانت الأعوام الثلاثة التالية التي سوف نذكرها بكل ما فيها من فزع وأهوال هي بين أكثر أعوام التاريخ إثارة ومشاكل، وكان الممثلون الرئيسيون في هذه المأساة هم:

غريغوري، وهنري، والقائد النورماندي روبرت غويسكارد، وماتيلدا المخلصة، ولكن من الصعب أن نحدِّد المنتصر في هذا الصراع الأخير، إذا جاز لنا أن نقول أن أحداً قد انتصر، وذلك لأن التطورات التي حدثت بعد عبور هنري لجبال الألب، كانت عبارة عن سلسلة كبيرة من الحوادث التاريخية، التي سببت خسارة الجميع، فقد حاصر هنري روما مدة ثلاثة أعوام، لكنه لم يستطع دخولها أبداً، بل تعرّضت المدينة للحرق على يد النورمان أنفسهم الذين استدعاهم غريغوري لإنقاذها، هذا ولقد لقي ألوف من السكان حتفهم، أو بيعوا في أسواق النخاسة، وقد تخرب كل ما بقي من عظمة وجلال روما القديمة، وأصبح أطلالاً، وبيعت الأعمدة الفخمة الرائعة والتماثيل القديمة التي كانت تزين

الساحات العامة، وأرسلت لتستعمل لتشييد الأبنية في جميع أنحاء أوروبا، وأما غريغوري فقد احتفظت به أسرة بيرليوني حفظاً لسلامته، في قلعة رومانية قديمة، كانت معقلاً من معاقل الوثنية التي حاول البابوات القضاء عليها، وقد مات في المنفى عقب مدة قصيرة بعد أن أنهكه المرض وهده التفكير بما أصاب مدينته المحبوبة، ونزل بها من المحن التي تعرضت لها من نهبٍ وحرقٍ وتخريب، ولقد عم الموت والخراب والتعويق والخيانة على يد الصديق قبل العدو، الأمر الذي سبب خيبة أمل الجميع، وأخيراً وضع التاج الإمبراطوري على رأس الإمبراطور، لكنه كان تاجاً هشاً من ورق، وذلك لأن سيادة السلطة الزمنية قد ولى أمرها وانتهت، ومع أن البابا لم يربح المعركة، إلا أن البابوية هي التي ربحتها.

وابتدأت المأساة عندما وصل هنري على رأس جيشه، كان جيشاً لا بأس بعدده، ولكن لم يكن بحجم يؤهله لانتزاع النصر، ووصل له الدعم العسكري، والسياسي كما هي العادة من لومبارديا المعادية للبابا، حيث أعلن كلمنت الثالث حبراً أعظم جديداً بدلاً من غريغوري، لكن هذا الإعلان لم يكن له قيمة شرعية من أي نوع كان وعدّ خرقاً لقانون الانتخاب لعام 1057م، إذ كيف سولت لأعداء غريغوري أنفسهم اتهامه بالقيام بمناورات غير قانونية، مع أنهم عمدوا هم أنفسهم آنذاك إلى تعيين رجلٍ في منصب الحبر الأعظم، دون موافقة مجلس الكرادلة، وهكذا يبدو موقفهم مُحيراً، وليس من العجيب أن نرى أن كلمنت ظل طيلة الوقت مقدراً حبراً أعظم خاصاً بهنري: وليس بالمسيحية.

ومن نافلة القول أن نذكر أنه عندما تنازل البابا غريغوري السادس عن عرش البابوية، كان خلفه الذي قدمه هنري الثالث للرومان يُدعى كلمنت أيضاً، وهذه دلالة تشير إلى أن هنري الرابع كان يحاول أن يتطابق دوره، ويتماثل مع دور والده، الذي كان يحترمه ويقتفي آثاره تماماً كما كان غريغوري يتناغم، ويقتفي آثار غريغوري السادس، لكن روبرت غويسكارد القائد النورماندي الذي كان قد أسر البابا ليو التاسع في سيفيتيلا،

صدف أنه لم يكن موجوداً، إذ كان في إحدى مغامراته في اليونان، ولهذا لم يستطع أن يرسل أكثر من مفرزة صغيرة لمساعدة المليشيا الرومانية والمدافعين التوسكانيين الذي أعدَّتهم ماتيلدا للعمل على تحصين المتاريس في روما، وتزويدها بالجند.

وكانت الأماكن المحصنة التابعة للنبلاء تعُج بالجنود الخاصة التي كان على رأسها قوى عائلة فرانجيباني وسنسيوس التي أصبحت موالية للبابا في هذا الوقت، كما أن آل بيرليوني حصنوا مواقعهم وتحصيناتهم في تراستفيري ولم يستسلموا للعدو، ولقد تحقق هنري وتيقن من قدرة قوى الدفاع العسكرية وتماسكها بعناد ولاءً للبابا غريغوري، ولهذا لم يجرؤ على مهاجمة المدينة، الأمر الذي ساعد في إضعاف حزبه في روما، ذلك الحزب الذي استطاع في الماضي أن يخطف البابا، اجتمع أفراده الآن لا قائد ولا زعيم لهم، (وكان سنسيسوس قد مات منذ مدة، وكما قال أعداؤه: ذهب إلى الجحيم)، وهكذا أقام هنري بلاطه الملكي خارج روما، حيث أقيمت الاستعراضات العسكرية والمواكب التي كان البابا الصوري كليمنت يُمثل دور المهرج المقدس فيها، كل هذا كان يتم تحت سمع الرومان وبصرهم، ويزودهم بالتسلية عند مراقبتهم لهذه المناظر وهذه الحركات من متاريسهم وشرفاتهم.

وبعد أربعين يوماً من هذا الحصار الذي لم يكن من طائل تحته، انسحب هنري إلى توسكانيا، حيث التحقت به قوى لوكا، وبيزا وسينا الذين بهرتهم قوته وسحره الجديد، وبقيت فلورنسا موالية لماتيلدا التي كانت قلاعها وحصونها تنتشر في جميع الأصقاع الشمالية، والتي برهنت أنها من أكفأ خصوم هنري وأشدهم وقعاً عليه، هذا وقد استؤنفت الحملة ضد روما في ربيع عام 1082م، ولكن بالنتائج نفسها والإخفاق، فقد أصبح غريغوري يملك السيطرة الكاملة على روما، ومع أن جنود هنري بدأوا بسلب ونهب الريف المجاور لروما، إلاّ أن المدينة بقيت سالمة ولم تُمس، وظلت ماتيلدا تثبت أنها خصم عنيد عندما كانت تثير حملات صغيرة من خلال

قلاعها وحصونها، وقد ظل الحال على هذا المنوال سبعة أشهر أخرى في حصار عقيم دون طائل، ودون إحراز أي نجاح.

حقاً لقد بدأ أهالي روما يلغطون ويتذمرون، وإن أحسن علاج لمثل هذا الهيجان الشعبي كان هو دائماً النقود، هذا وقد أرسل النورمان النقود بدلاً من المساعدات العسكرية التي كانت المدينة في أمَسِّ الحاجة إليها، وقد كانت ماتيلدا تصهر الأواني الذهبية والفضية التي كانت تُزين كنيستها وتبعث بالمعادن الثمينة إلى صديقها، وبالطبع ساعد آل بيرليوني صديقهم وقريبهم إلى أبعد الحدود، وهكذا استطاعوا تجنُّب النقمة الشعبية، والتمرد الشعبي ولم يبق هناك أي تذمر أو عدم رضا بين الأسر النبيلة، وفي شهر حزيران أحرز هنري انتصاراً جزئياً، ولكنه لم يكن يخلو من الأهمية، فقد فتح المدينة الليونية، ولكن غريغوري استقر في كنيسة القديس بطرس حيث استأنف المقاومة بعناد، ولكن أصبح هذا العمل محفوفاً بالخطر، ولهذا أصرت أسرته على أن ينتقل إلى قلعة سانت انجيلو المنيعة، وذلك لمتابعة الحصار، لأن هذه القلعة كانت أمنع معقل لهذه الأسرة وهي ضريح هدريانوس – لأن الجميع كانوا يتوقعون أن يأتي النورمان تحت قيادة روبرت غويسكارد ما بين لحظة وأخرى –، ولا يعلم إذا كانت الأسرة قد اشترت هذا المبنى الهائل أو أنه انتقل إلى حوزتها بوسائل أخرى، ولكن من المؤكد أنهم لم يمتلكوها بالوقت نفسه الذي امتلكوا به قلعة الأسرة الأخرى، وهي مسرح مارسيلوس، التي بقيت بيد هذه الأسرة مدة ثلاثمائة عام، ولكن ما يهمنا هو أنها كانت بيد الأسرة في الوقت المناسب، وقت الحاجة، وكانت القلعة ضخمة جداً، حتى أن جميع موظفي البابوية كانوا يستطيعون الإقامة بها، أو في جزء منها فقط، والحقيقة أن غريغوري استمر في حكم الكنيسة، وهو متمركز في كنيسة سانت انجيلو.

لقد كان انتقال البابا من كنيسة الرسول بطرس عملاً سليماً، لأنه سرعان ما استولى هنري على البازليكا القديمة، وقد علق المؤرخ غريغوري، الذي كتب عن هذه الحقبة

بتأثر عميق، ويتعاطف كبير بقوله: «وهكذا دخل هنري كنيسة الرسول بطرس بعد محاولات طويلة غير مجدية، بينما كان عدوه اللدود مختبئاً في كنيسة سانت انجيلو ينظر من خلال المتاريس، ويراقب ذلك المذنب التائب القديم في كانوسا، وهو محاط بالفرسان والأساقفة والنبلاء الرومان، تحرسه جماعته المخالفون للبابا، وهو يسير فوق الخرائب المحترقة متُجهاً إلى كاتدرائية القديس بطرس»، وربما كانت تسبيحة الشكر التي تسمع من الكاتدرائية تسبب له بعض الهدوء، وتلطف مزاجه قليلاً، ما دام أنه انتقم، وما أحلى الانتقام! ولكن كل ذلك لم يكن يُرضه تماماً، فقد كان البابا الذي عينه ألعوبة بيده (مع أنه كان مفيداً في الوقت الحاضر) لم يكن قد نُصب بشكل شرعي، ولم ينتخب بشكل شرعي أيضاً، لا بل حتى تاجه الإمبراطوري الذي كان تمناه، لم يكن قد ثبت على رأسه بعد، وكانت هنالك أمنية تدغدغ أفكاره، وهي أن يأتي اليوم الذي سوف يتوِّجه به غريغوري العظيم بنفسه.

وأضفى تزامن وجود حالة الحرب، مع وجود البابا في كنيسة سانت أنجيلو، على تلك الكنيسة تبايناً غريباً، فقد بنيت القلعة بمهارة فائقة، وبراعة في الصناعة مما جعلها تظهر حتى في هذه الأيام، وكأنها لم تمس، ولن تمس، فالأسوار سميكة جداً وبإمكانها مقاومة أي نوع من الهجوم، وإذا استعملنا مفاهيم العصور الوسطى نجد أن مناعة هذه القلعة ليست مجرد كلام، أو أسطورة، وهنالك نفق عظيم سري يصل هذه الكنيسة بكنيسة القديس بطرس، وقد حُفر هذا النفق لكي يفي بأغراضٍ كالأغراض التي وجد غريغوري نفسه في حاجة إليها، ولو كان هذا النفق موجوداً في القرن الحادي عشر إذن لخدم في تأمين الاتصال لنقل الحاجيات الثمينة، والمواد والأدوات الطقوسية، والمخطوطات حتى في أيام الحصار من قِبل عدو متربص لا يبعد أكثر من بضع مئات من الأقدام عن الكنيسة (لم أجد برهاناً يثبت ذلك)، ولما كان هذا النفق سرياً، فيجب أن يكون قد استعمل بعد أن اخترق هنري الأسوار، وعلى كل حال فقد كانت القلعة مجهزة

تجهيزاً كافياً لاستعمال البابا للعبادة والصلاة فضلاً عن مقتضيات الحكم البابوي، ولا يَسع الإنسان عندما يتجول في هذه الأيام في تلك الأقبية اللامتناهية في عددها، (والتي هي الآن عبارة عن متحف) إلا أن يجمح به الخيال فيتصور كيف كانت تبدو عندما كانت تستخدم في مجموعة من الأغراض، أي ككنيسة للبابا، ومقراً للحكم، ولاشك أن بعض المذابح قد نُقلت من كنيسة القديس بطرس، وكذلك اللوحات والتماثيل وكراسي القراءة المزينة والمحفورة بأسلوب رومانسيكي أنيق، والكتب والمخطوطات الطقوسية المكتوبة بجمال وإتقان وأناقة، على يد رهبان مونتو كازينو، وفي إحدى الصالات التي أصبحت كنيسة خاصة بالبابا، كان غريغوري يحتفل بالقداس كل يوم في ساعات معينة مخصصة للاكليروس والنبلاء، وفي أوقات أخرى كان القداس يخصص لرجال المليشيا الذين كانوا يؤمُّون الكنيسة بشكل ربما كان غير محبب إلى أنفسهم، وكانوا يلبسون ألبستهم الرسمية البديلة ويتنكبون الأقواس والسهام، وهم على أتم الاستعداد لرد أي اعتداء، ومن المحتمل وجود جوقة لترديد الأناشيد المقدسة (التي كانت تنافس الأصوات الخشنة الصادرة عن الجنود الموجودين في الخارج، وفي ممرات الكنيسة وفي قاعاتها)، وفي هذه الأيام يستطيع الإنسان أن يجلس في مقهى صغير على السطح، ويرى منظراً شاملاً عريضاً لروما مع كنيسة القديس بطرس في خلفيتها (وكانت كنيسة ميكيل أنجيلو أقل هيبة وتأثيراً، مما هي عليه الآن، ولم يكن قد بني بها رواق برليني المعمد الرائع)، وهنا ربما يذكر الإنسان غريغوري، وهو يراقب المدينة من المكان نفسه، ويحدق بقلق بالجنود الألمان، واللومبارديين الذين كانت رؤوسهم تُرى وهم يحرسون الأسوار حول المدينة الليونية، وفيما بعد وبعد أن اخترق الألمان المدينة كان هؤلاء الجند يسيرون في الشوارع عبر نهر التيبر ليس على بُعد أكثر من رمية حجر، ولكن لم يرم أي حجر على سجن القلعة، ويمكن للإنسان أن يتخيل غريغوري وهو يحدق في السهول البعيدة المحيطة بروما وهو يَرقب بقلق أية إشارة تظهر من النورمان القادمين، وهم أمله الوحيد، الذين سوف يأتون لحمايته

حتماً، ومساعدته حالما يُنهي غويسكارد تصريف شؤونه وتسويتها في بلاد الإغريق، فالرجل الذي كان عدوه اللدود بالأمس، أصبح اليوم الحليف العظيم لغريغوري.

في هذا المحبس في هذه القلعة كتب غريغوري ودبج بعض رسائله واستغاثاته ومناشداته، ولما كانت هذه الرسائل قد كتبت في حالة ضيق وكرب، لذلك فهي تكشف حقيقة هذا الرجل أكثر مما تكشفه رسائله، وهو في أوج قوته وسلطته، التي لم يكن يُنازعه بها منازع، وكان أعداؤه وكل من لم يعرفه يعتقدون أنه عنيد، ولكن الحقيقة أن ثباته وجَلده بالنسبة للإيمان وتكريسه نفسه لإتمام أهدافه، هذه الصفات جعلته صُلباً لا يلين، وتظهر بشكل جلي في هذه الرسائل رجولته وشجاعته التي رافقته وأصبحت من خصائصه وصفاته الرئيسة حتى النهاية، ولاشك أنه كان يعلم أنه كان يسطر حروف التاريخ، ونذكر هنا نموذجاً، وهو دون تاريخ ولكنه يرجع إلى أيام حصار روما، وهو موجه «**لجميع رعايا الكرسي البابوي وأتباعه**»:

«إننا متأكدون أيها الأخوة المحبوبون أنكم تتعاطفون مع آلامنا، وما نحن فيه من محن، وأنكم لا تنسوننا، بل سنظل في قلوبكم وأنتم تصلون للرب، ولن يتطرق الشك إلى نفوسكم بأننا نُضمر لكم المشاعر نفسها، ولنا سبب وجيه لهذا الإضمار، لأن الرسول يقول: (إذا تألم عضو منكم تألم له سائر الجسد)، لذلك فنحن نرغب في شيء واحد فقط، وهو أن تعود الكنيسة المقدسة إلى سالف مجدها وروعتها ووحدتها، بعد أن وطئتها الأقدام، ودبت بها الفوضى وتقسمت أحزاباً وطوائف، ولا يأخذكم العجب أيها الإخوة الأحباء إذا قلت لكم أن العالم يكرهكم، لأننا نحن نثير العالم ضدنا بمقاومتنا لرغباته، وإدانتنا لأعماله، لماذا يستبد بنا العجب عندما نرى الأمراء وكبار القوم في هذا العالم يكرهوننا حينما نقاوم أعمالهم الشريرة ونثور ضدهم بغضب، ومع ذلك، حتى هذا الوقت، فقليل منا قد قاوم الطغاة والأشرار مقاومة جدية تبلغ حد إراقة الدماء، فكروا أيها الإخوة، فكروا كم من الجنود في هذا العالم قد قدموا حياتهم لأجل سادتهم، ولأجل

مطامع هؤلاء السادة في الربح وقذارة المال، أما نحن فماذا عملنا لنحوز على مرضاة الرب في علاه، ولراحة أنفسنا الأبدية؟ تعالوا، وقووا قلوبكم، ولتبقى آمالكم حية، وضعوا نصب أعينكم راية قائدنا الملك الخالد الأبدي، ونصيحته: **(بصبر، حافظوا على أرواحكم)**».

هذا الرجل الذي كتب مثل هذه الرسائل في أحلك ساعات الشدة والكرب، وانقطاع الأمل، هو الذي تقدم نبلاء الرومان للتفاوض بالنيابة عنه، فقد عمل سنسيوس فرنجيباني، وهو صديق طفولة غريغوري وألبيرك بيرليوني قريبه على التردد ذهاباً وإياباً على رأس وفد لإيجاد حل سلمي تحفظ به كرامة البابا وهيبة الإمبراطور، وتنقذ به روما نفسها، وكان من المفهوم أن هنري رغب بقبول التسوية على شرط أن يتم تتويجه على يد البابا الشرعي، ولم يكن مهتماً جداً، بالاعتراف رسمياً بالبابا البديل الذي عينه هو، بل قال أنه يكتفي لو أن غريغوري ناوله التاج من نافذة من نوافذ القلعة واضعاً إياه على عصا طويلة، وأما النبلاء فكانوا يحسبون حساباً لمزاج الشعب، وكمية الأطعمة المتناقصة يوماً بعد يوم، والتكاليف المتزايدة للإنفاق على الجند ورشوة الرعاع، فلم تكن أموال ماتيلدا، ولا أموال أسرة بيرليوني لتظل باقية دون أن تنفد إلى الأبد، ولهذا ذهب النبلاء إلى غريغوري وهم يحملون هذه الأفكار، ولكنهم وجدوا في غريغوري رجلاً عنيداً لا يلين، والآن لقد أصبح في أواخر عمره (كان يشعر أن الإجهاد قد أثر عليه)، فلم يكن ليبيع كل رصيده للعدو الذي ظل طيلة حياته يطارده، ولهذا يكون قد خان مبادئه بتحكم البابا، فقد كان يريد أن يبرهن للعالم أجمع، أن البابا هو الشخص الذي يتوجب على الأمراء أن ينحنوا إجلالاً له.

وكان غريغوري يعتقد أنه إذا صدف وعمد البابا - وهو الذي تقمص به الرسول بطرس، وهو أيضاً نائب المسيح - إلى إجراء تنازلات وتسويات مع الملك الألماني، تحت تهديد السلاح، فذلك خيانة للرسول بطرس، إن لم يكن خيانة للمسيح نفسه، وقال إنه

لن تستطيع أية مناقشات أو محاولات يقوم بها أحد من بني البشر أن تثنيه عن عزمه للاحتفاظ بهذا الموقف، وهكذا تركه النبلاء، وهم يشعرون بخيبة الأمل، لأنهم علموا أنهم إذا كانوا يتفهمون دوافع البابا الداخلية، ويحترمون هذه الدوافع، فإن رجل الشارع لن يفعل ذلك، والدفاع عن روما لا يعتمد على النبلاء ولا حتى على المليشيا فحسب، بل على الشعب أيضاً، وإذا حدثت حرب أهلية فهي الكارثة.

وفي أثناء ذلك شعر هنري بخيبة الأمل بسبب نجاحه العسكري المحدود وإخفاق مفاوضاته الكامل، فترك روما وليس فيها سوى حوالي أربعمائة جندي ألماني، وتوجه إلى كانوسا، وكما ضغط غريغوري من قبل على هنري في كانوسا، هنا قرر هنري أن يقوم بالضغط نفسه على ماتيلدا، التي كانت قد أصبحت قائدة الجيوش المنتشرة في الشمال، والتي كانت تضايق هنري بغاراتها المتكررة باستمرار، وبينما كانت ماتيلدا ترسل المساعدة تلو المساعدة والتشجيع لصديقها غريغوري، لذلك أصبحت أكثر شبهاً بالأمازونية[1] أكثر منها بالبطلة التوراتية، هذا وقد جندت كل نشاطها وعواطفها ومواردها في ناحية واحدة، وفي هدف واحد، وهو كسر هنري وإعادة سلطة غريغوري، وعندما تعرضت لضغوط شديدة تخلت قليلاً وبصورة مؤقتة، ولكنها استعادت قوتها وعزمها بالصلاة والتأمل، فبدأت تعمل كأنها روح منتقمة أو كامرأة حقود، وقد كرست نفسها، وكل ما تملكه لهدف واحد وهو النصر.

رجع هنري إلى روما عشية عيد الميلاد في عام 1083م، وهنالك ظهر له أن معظم جنوده قد لاقوا حتفهم نتيجة للحمى، وأن غريغوري صلب لا تلين قناته، إلا أن الوضع قد تغير تماماً، فبالنسبة للرومانيين أصبحوا يفكرون أن هنري لم يعد هو سبب جوعهم وحرمانهم وتعبهم في الساعات الطويلة التي قضوها في الحراسة والترقب، ولم يعد هو

(1) الأمازونية: امرأة من عرق خرافي ومن المحاربات، زعمت الأساطير الإغريقية أنهن كن يقمن قرب البحر الأسود، والواحدة منهن طويلة القامة مسترجلة.

السبب في التمزق الذي حدث في حياتهم الخاصة، بل عدّوا غريغوري هو المسؤول الوحيد، فقد أصبح سواد الشعب لا يرى ولا يتخيل في البابا إلا رجلاً مسناً عنيداً لا يفكر بمصلحة الشعب، قدر ما يفكر بمصالحه الخاصة وبنفسه، أما القضايا المعقدة التي تتطلب تفكيراً رفيعاً، وأما المعايير التاريخية والتخطيط الطويل الأمد لسياسة الكنيسة، فلم يكن يهم عامة الشعب لا في قليل ولا في كثير، وهكذا فتح الرعاع والغوغاء الرومان أبواب مدينتهم على مصراعيها (أو على الأقل الأبواب التي سيطروا عليها، ووصلوا إليها بسهولة) ودخل هنري وجنوده المدينة، ولم يأت اليوم الحادي والعشرون من شهر آذار، إلاّ وقد أصبحت روما جميعها تحت سيطرته (أو على الأقل الأجزاء الأكثر أهمية فيها)، وظل غريغوري قابعاً في كنيسة سان أنجيلو، واحتفظ آل بيرليوني بالضفة اليسرى، وأما ما عدا هذه المناطق فكان بيد الألمان، وفي يوم أحد السعف[1] جمع هنري برلمان الرومان الذي دُعي إليه النبلاء والاكليروس، وأما غريغوري الذي لم يظهر طبعاً، فقد أعلن عزله بسرعة، ودون إبطاء، وأعلن أن البابا الشرعي هو كلمنت الثالث، ومع أن هذا الإعلان لم يكن ليعني شيئاً بالنسبة للقانون الكنسي، إلا أنه كافياً بالنسبة لهنري، وفي يوم أحد الفصح تجمع مؤيدوه في كنيسة الرسول بطرس (ربما كان غريغوري يراقبهم من الأبراج الصغيرة في القلعة)، وهناك توج كلمنت الثالث هنري والملكة بيرتا إمبراطوراً وإمبراطورة، للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وبعد بضعة أسابيع من هذا الحادث، وفي الرابع والعشرين من شهر أيار، لاحظ الحراس الرومان بعض الحركات الغريبة في الوديان، فقد رأوا الخوذ العسكرية والرماح على مسافة منهم، وهي تلمع تحت أشعة الشمس، ثم ظهرت كتائب الجنود، وهي تهدر كالأمواج على الشاطئ بأعداد متصلة لا نهاية لها، وبشكل قاس لا يلين، وسرعان ما

---

(1) أحد السعف هو يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح، وفيه تحيى ذكرى دخول المسيح ظافراً إلى بيت المقدس حيث نشرت على طريقه سعف النخل.

غصت السهول والوديان بالجنود الفرسان منهم والمشاة، فها قد أتى النورمان أخيراً، وعلى رأسهم غويسكارد وابنه الأصغر في جيش يتألف من حوالي ستة آلاف فارس، وثلاثين ألفاً من المشاة.

وقد كان هؤلاء خليط من الرجال جمعوا من كثير من بقاع الأرض، ولكنهم كانوا تحت قيادة النورمان، ومعظمهم من العرب والمسلمين من صقلية، ومن كل زاوية وقطر من الأقطار الإسلامية، وقد تألف منهم حشد هائل متنافر متعدد الألوان مسلح تسليحاً كاملاً، ولكنهم كانوا جياعاً يميلون للتخريب والتعذيب، يعوزهم النظام، ويتوقون لاحتلال روما، وعندما رأى هنري هذه الجموع تأكد أن ليس باستطاعته مقاومتها، ولما كان قد حصل على أمنيته، وهي التتويج، لذلك بدأ بالتقهقر بجيشه الصغير شمالاً، ودخل غويسكارد المدينة بصفة محرر عظيم، وتقدم إلى كنيسة سانت أنجيلو، حيث عانقه البابا غريغوري السابع وقبله، ويا له من منظر عاطفي غريب، إذا قورن بمنظر سالف للبابا ليو التاسع في سيفيتيلا (تذكر أن النورمان قد أخذوا هذا البابا أسيراً حينها) ومع ذلك فقد تحررت روما الآن ووجدت البابوية حامياً قوياً شديد المراس يرتجف حتى الإمبراطور أمامه فرَقاً، وهاهو غويسكارد يمثل قوة الغد، فقد استولى أنسباؤه وأقرباؤه على إنكلترا، وأصبحت إمبراطوريته ظاهرة سياسية جديدة في العصور الوسطى، ومثل هذا الرجل قد أتى لتحرير البابا، ومعه الكنيسة برمتها التي قضت شهوراً وسنوات قيد الأسر الحقيقي، هذا وقد آن أوان التحرر، وتحرك الموكب في اتجاه القصر اللاتيراني في مظاهرة أقل ما يقال عنها أنها كانت مظاهرة النصر، وحتى الظفر، وحالما ركع غريغوري في قدس الأقداس في الكنيسة العظيمة وهو يحتفل بالقداس، تقدم بالشكر للرب في صلاة كلها إخلاص وامتنان وشكران، إذ لم تعد الكنيسة رهن القيود والأغلال.

ولسوء الحظ ثبت أن غريغوري كان مخطئاً، فقد كانت الاحتكاكات الأولى بين الرومان والنورمانديين أمراً محتملاً في أول الأمر، أي مجرد علاقة مع أي جيش أجنبي،

ولكن لم تمض بضعة أيام حتى طفح الكيل واكتشفت روما أنها كانت تتعامل مع جيوش وحوش، إذ انتشر الاغتصاب والقتل والحرق والنهب والسلب، واقترفت كل الأعمال الوحشية، مما سبب استنفاد صبر الرومان، وقد كانت الاحتكاكات أولاً تنحصر في الحانات والمواخير العامة، ومناوشات في بعض الشوارع، ولكن سرعان ما لجأوا لاستعمال أسلحة المعارك، ولم يكن هنالك أي شك لمن سيكون النصر، فالخاسر طبعاً هو الشعب، وكما لاحظنا فقد الألوف من الشعب أرواحهم في الشوارع دونما سبب، ودونما مقاومة، بينما بيع الألوف من الآخرين، ومن بينهم أفراد من الأسر النبيلة في أسواق النخاسة، وبدأت روما تحترق بضراوة، وانتشر اللهب في بعض القصور والأسوار والحدائق، والبعض الآخر هُدم وسويت به الأرض بعد أن نهبت البيوت وانتهكت أعراض النساء، وهدمت النصب المسيحية القديمة، وأصبحت قاعاً صَفْصفاً، وأكواماً من الحجارة والركام، وقد وصف الشعراء بعد زمن ما حل بروما من الخراب بأسلوب مؤثر يُفتت الأكباد، ومما زاد الطين بلة أن الجنود المسلمين توغلوا في كنيسة الرسول بطرس، ولأول مرة في التاريخ ارتفعت أصوات الصلوات الإسلامية التي بدت كجوقة من جوقات النصر، (أما بالنسبة للرومان فكانت هذه الصلوات الإسلامية تشبه ألحاناً حزينة، وترانيم جنائزية ممزوجة بالخزي والعار)، وقد حدث هذا كله في القاعات المقدسة للعالم المسيحي.

وهكذا، وكما كانت مدينة القدس - التي عمل غريغوري على تخطيط حملة صليبية لتحريرها - خاضعة للسيطرة السلجوقية هكذا كانت روما، قدس المسيحية بأجمعها قد تحولت أطلالاً لا فائدة منها على يد غير المسيحيين، ولم يذكر أي مؤرخ أية كلمة قالها غريغوري حتى في رسائل صديقته الوفية ماتيلدا، يصف بها أفكاره وعواطفه حالما كان ينظر إلى تلك المدينة، التي قضى بها شبابه، وعمل فيها لأجل الكنيسة قبل أن يستلم منصب البابا، وأخيراً تلك المدة التي قضاها، وهو يحكم ذلك الشعب الذي عرفه وأحبه، ولقد أصبحت روما فارغة وعقيمة لا طائل تحتها، فلقد دُنست، وانتهكت

قدسيتها، وها هم النورمان يتركون المدينة بعد أن حشدوا حشودهم فيها، ووراءهم الدخان يرتفع من كثير من الأبنية المحترقة، وظل ألوف الموتى ملقون على الأرض في الشوارع دون أن يدفنوا، ورائحة الموت تنتشر في المدينة، ولا شيء يسود فيها سوى الإقفار والخراب، والبؤس البشري على مدى العين والنظر ولقد أصبح غريغوري غريباً في مدينة طفولته، يشعر بالعزلة، وكراهية شعبه ومقتهم وازدرائهم له، فلم يعد يخشى هنري فحسب، بل كان عليه أن يرهب أتباعه ورعاياه، وعندما أدرك أنه من الأسلم له أن يكون تحت حماية غويسكارد، انتقل ليقضي بقية عمره في قصر من قصور سالرنو في إيطاليا، وسرعان ما تركه غويسكارد، ومات بعد أن استحوذت عليه فكرة الاستيلاء على القسطنطينية، وقد دعا غريغوري لعقد مجمع كنسي في سالرنو، لكن انحطاط روحه المعنوية، وعزيمته، تضافرت مع انحطاط جسمه، فلم يستطع أن يغادر فراش مرضه، وهكذا توفي في اليوم الخامس والعشرين من شهر أيار عام 1085م، وهو في الثالثة والستين من العمر، وقد قيل أن آخر أفكاره كانت تتوجه دوماً نحو ذلك المبدأ الذي دافع عنه طيلة حياته: «لقد أحببت العدالة، وكرهت الجور والخطيئة، ولذلك فإني أموت منفياً»، وإن هذه الكلمات ما هي إلاّ إعادة لصياغة واحد من الأناشيد التوراتية القديمة، وقد دفن تحت مذبح كاتدرائية سالرنو في صقلية.

ومع أن غريغوري قد سمى أربعة أساقفة كخلفاء يحتمل انتخاب أي واحد منهم ليخلفه، إلاّ أنه مضت أكثر من سنة قبل أن ينتخب بابا جديد، وأخيراً اختاروا حبراً أعظم جديداً، وكان نعْمَ الاختيار، ولكنه بقي متردداً في قبول هذا المنصب، ورفض ممارسة أية سلطة، فقد كان غنياً، تقياً ورعاً، ميالاً للرهبنة، وعالماً، وهو كاردينال القديسة سيليا في تراستفيري، موطن غريغوري، لكن حبه وإخلاصه ينتمي إلى دير مونتي كازينو، وقد أعلن حبراً أعظم في أواخر الربيع من عام 1086م باسم فكتور الثالث (1086 – 1087م)، وبالنسبة لرجل أكثر قدرة وطموحاً من هذا الرجل كانت المطالب التي تواجه البابوية في

تلك المرحلة غاية في التحدي، وقد وجدهم فكتور ليس فقط مثبطين للهمة، لا بل حتى مخيفين، فكان في كثير من الأحيان عندما كانت تضايقه مشاكل الكوريا، قد اعتاد أن ينسحب ليرتاح في مونتي كازينو.

وأصبح الحزب الإمبراطوري هو الحاكم الفعلي لروما، مع أن حكم المدينة وإداراتها كان بيد ائتلاف من أسرتي فرانجيباني وبيرليوني (ونجد اسمي هاتين الأسرتين في وثائق معاصرة)، وكانت كنيسة الرسول بطرس بيد أعدائهم وقد اضطرت أسرة بيرليوني أن تتخلى عنها أخيراً، وأما منافس غريغوري على البابوية وهو البابا كلمنت الثالث، فقد بدا في أول الأمر تافهاً ضئيلاً، إلاّ أنه استطاع أن يسيطر على كنيسة القديس بطرس، وقصر اللاتيران، وحصل على اعتراف كثير من الدول بما فيها هنغاريا وإنكلترا، وأما هنري الرابع الذي ظهر أولاً أنه شعر بالراحة لتوقف معاركه ضد غريغوري وأعدائه التقليديين، ما لبث أن تورط في نزاع مأساوي ضد ابنه الأكبر كونراد الذي أجبره على التنازل عن العرش، ونصب نفسه ملكاً على اللومبارد.

إن هذا الوضع مع ما فيه من الضرر للكوريا ولحزب الإصلاح، إلاّ أنه جعل من الجزيرة في نهر التيبر معقلاً شديد الأهمية والقوة، وجعل من آل بيرليوني قوة أعظم من السالف، ولكن ولاءهم للبابوية الشرعية ظل أمراً لا يتطرق إليه الشك، وقد ثبت أن امتلاكهم لتراستفيري وللجزيرة أمر لا يُستغنى عنه، ولما كان البابوات الشرعيين لا يستطيعون أن يعيشوا في كنيسة الرسول بطرس، لهذا أقاموا مع أسرة بيرليوني في البرج الذي لا يزال مشاهداً حتى اليوم، ومن الممتع أن نقول أن الجزيرة قد احتفظت بطابعها اليهودي، وقد أنشئ مستشفى لليهود الفقراء هناك، وتنفق عليه الجماعة اليهودية في روما، وهنالك إشارة كتب عليها ما يلي: «المشفى اليهودي لمعالجة فقراء اليهود»، ويقع على الجزيرة برج يعود في تاريخه إلى العصور الوسطى، ويعرف باسم برج ماتيلدا حاكمة توسكانيا، ويسكن في غُرفه فقراء روما، لكن البرج نفسه سامق وشامخ إلى العلاء،

يشرف على جميع منطقة تراستفيري، وعلى منظر الضفة اليسرى لنهر التيبر، وعلى الرغم من مرور حوالي ثمانمائة عام عليه، إلاّ أنه لا يزال في حالة حسنة، وفي هذا المكان عاش البابوات ضيوفاً على آل بيرليوني الذين أكرموا وفادتهم وأضافوهم، وهم البابوات الذين خلفوا غريغوري السابع.

لم يعش البابا المتردد فيكتور طويلاً، فقد توفي عام 1087 وانتخب الاسم الثاني في القائمة التي اختارها غريغوري، وكان اسم البابا الجديد أوتو أسقف أوستيا، واتخذ لنفسه اسم أوربانُ الثاني (1088 – 1099م)، وقد ثبت أن انتخابه كان له أهمية سياسية قصوى، وبالنسبة لحالة الفوضى في روما، وانتشار هذا الوضع فيها، فقد حدث انتخابه في البلدة البعيدة القصية، وهي تيراسينا، ولكن هذا الانتخاب كان قانونياً شرعياً في كل مظاهره، وقد روعيت به كل الأنظمة الحديثة السارية المفعول بشأن انتخاب البابا بشكل دقيق، وحضر الانتخاب أربعون كاردينالاً وأسقفاً، ورئيس دير، وهم يشكلون الكوليجيوم[1] ومع أن أوربان وغريغوري كانا صديقي العمر، (ولاشك أن هنالك صداقة بين أوربان وآل بيرليوني)، إلا أن الرجلين يختلفان بعضهما عن بعض، في الخلفيات والأخلاق الشخصية، وإن طبيعة غريغوري الساذجة المزعومة يصفها بعضهم بأنها تعود إلى أصلٍ قروي، ولكن عناده وافتقاره للدبلوماسية، وتحيزه لجانب واحد، ومعاركه التي لا هوادة فيها ضد الإمبراطور، ليست هذه كلها من صفات القرويين والفلاحين، ونحن نعدها صفات وخصائص نبي من أنبياء العهد القديم، وليس من الممكن أن نعد أشعيا فلاحاً، أما أوتو فعلى الرغم من اسمه الألماني، إلاّ أنه ولد لعائلة فرنسية نبيلة في مدينة شاتليون (ليست بعيدة عن ريمس) وكان غنياً، حسن الثقافة، مهذباً، عالماً، ووسيماً، بينما كان غريغوري قصيراً وبشعاً، مندفعاً متهوراً، يلفظ الكلمات والتهديدات بسرعة من فمه، ونجده عكس أوربان الطويل القامة، المهيب الطلعة، والذي كان يؤثر على كل من يتصل

(1) الكوليجيوم مجلس يتمتع كل عضو من أعضائه بسلطة مساوية تقريباً لسلطة الأعضاء الآخرين.

به، وفي معاملاته مع الأساقفة والاكليروس كان أوربان يستعمل لغة مهذبة بأسلوب مهذب، ويربح تأييدهم بالإقناع وبدون القوة، ومع ذلك فلم يكن يساوم في مبدأ مع ما بدت عليه لغته وأسلوبه من تساهل، وكان من رجال كلوني السالفين، وكان في معتقداته قوياً لا يلين مثله مثل غريغوري إذ كان أحد تلاميذه، وفي الاتصال بجماهير الشعب كانت له مواهب لم يمتلكها إلاّ القلة من البابوات، فقد كان مبشراً متحمساً ساحراً، ولم تكن مواعظه تمتلك تلك الروح التي نجدها في مواعظ بطرس دومين، أو مواعظ سافونا رولا الذي تأخر عن هذا التاريخ، وبدلاً من ذلك فكانت بلاغته لها رشاقة مظهرة نفسها، وكانت فصاحته لا يضاهيها أي إنسان تقلد منصب البابوية، وساعده صوته الجهوري القوي الرنان، الذي كان يصل إلى آخر مقعد في الكنيسة، ويحمل رسالته لكل مستمع في الكاتدرائية، فلقد كانت مقدرته كخطيب فضلاً عن رسالته، هي التي صنعت التاريخ.

عند تولي أوربان عرش البابوية تعقدت الأمور وتشوشت في روما وألمانيا أكثر مما كانت عليه من قبل، فقد تزوج هنري الرابع من زوجة جديدة وهي الأميرة أدليد بعد محنته بخيانة ابنه كونراد له، وعندما ظهر إخفاق هذا الزواج هربت أدليد إلى ماتيلدا، حيث فتحت لها قلبها، وأفضت بالفضائح التي منها علاقات غرامية مع ابن زوجها، هذا وقد حاول هنري الانتحار بعد أن أصبح منبوذاً منعزلاً في سجن ابنه، وظلت روما تحت سلطة كليمنت الثاني، وهو البابا المضاد، وبقي الحال على هذا المنوال حتى استولى حزب الإصلاح على اللاتيران بعد لأي، وذلك باستعمال الرشوات والمال أكثر من استعمال القوة والسلاح، وهكذا عاد البابا الحقيقي أوربان إلى مقره الرسمي، ولكن وجود كليمنت البابا المضاد لم يكن المشكل الرئيس الذي واجهه أوربان، فالمسيحية أصبحت في هذا الوقت منقسمة متصدعة بشكل لا يدعو لأي أمل، ولم تعد المهارة الدبلوماسية كافية لرأب الصدع، ولهذا رأى أوربان أنه من الضروري القيام بمغامرة مثيرة على مستوى عالمي، تضع العالم المسيحي بأجمعه أمام عمل وهدف عام مشترك، وبعد وفاة كلمنت البابا المضاد

أصبح أوربان المتسلط الوحيد دونما منازع، وبناء على نصيحة ماتيلدا دعا إلى عقد مجمع كنسي في بياسنزا، المدينة التي استقبل بها هنري الثالث البابا غريغوري السادس قبل أن يُعزل هذا البابا، وقد صادف هذا المجمع نجاحاً لم يكن متوقعاً، إذ أعلن أوربان حالاً أنه ينوي عقد جلسة استثنائية فوق العادة في كلير مونت يعلن بها للعالم المسيحي بأجمعه خطة يحتفظ بسريتها حتى الآن، ولكنها ستخدم في إعادة الوحدة المسيحية إلى سالف عهدها، وبعد هذه المقدمات المثيرة لا عجب أن نرى أن الكاتدرائية الكبيرة قد غصت على رحبها بالحضور المنقطع النظير بالأساقفة والنبلاء والمؤمنين، فقد أمَّها مئتين وخمسة أساقفة، وثلاث عشرة من رؤساء الأساقفة وعدد غفير من الأمراء والنبلاء، والألوف من المؤمنين الأتقياء، ومع أنه كان يوماً بارداً من أيام شهر تشرين الثاني، إلاّ أن هذا الجمع الغفير احتشد، وانتقل إلى ساحة كبرى خارج البوابة الشرقية للمدينة حيث تجمعوا كتلاً كتلاً للوقاية من زمهرير الشتاء القارس، وهنا حلت اللحظة الحاسمة:

هنا اعتلى المنصة البابا أوربان بقامته الطويلة، ووجهه الوسيم، وتلا خطابه المذهل، وللأسف لم يحفظ لنا النص الرسمي للخطاب، ولكن نفهم من التقارير التي نقلت لنا من عدة مصادر أنه دعا لإنهاء حالة الفوضى، وقتل الأخ لأخيه في العالم المسيحي، وقد ابتدأ يقول: «انهضوا وأديروا أسلحتكم التي كنتم تستعملونها ضد إخوانكم، ووجهوها ضد أعدائكم، أعداء المسيحية، إنكم تظلمون الأيتام والأرامل، وأنتم تتورطون في القتل والاغتصاب، وتنهبون الشعب في الطرق العامة، وتقبلون الرشاوي لقتل إخوانكم المسيحيين وتريقون دماءهم، دونما خوف، أو وجل، أو خجل، فأنتم كالطيور الجوارح، أكلة الجيف التي تنجذب لرائحة الجيف الإنسانية النتنة، ضحايا جشعكم، انهضوا إذن ولا تقاتلوا إخوانكم المسيحيين بل قاتلوا أعداءكم الذين استولوا على مدينة القدس، حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد، افتدوا أنفسكم، أنتم المذنبين المقترفين أحط أنواع الآثام وهذه هي مشيئة الرب»، وهنا دوت أصوات الألوف من الناس الذين رددوا هذه الكلمة

«هذه هي مشيئة الرب»، ثم تقدم أسقف لى بوي وركع أمام البابا، واستلم بركته ليقود هذه الحركة المسيحية العظيمة، وهكذا بدأت الحملة الصليبية الأولى، تلك الحركة التي أوجدت للمسيحية هدفاً جديداً، ومع أن هذه الحركة كانت خطرة في كثير من النواحي، وقلما احتفظت بالمستوى الروحي الذي اتسمت به اجتماعات كلير مونت، بل كانت تلجأ إلى أخس الغرائز الشهوانية والسلب والنهب، والجشع والتعطش لامتلاك الأرض، والطموحات السياسية والعسكرية، إلاّ أنها في الوقت نفسه كانت تثير العواطف والانفعالات الدينية في كثير من المؤمنين.

ومع أن الصليبيين قد تعهدوا بمحاربة المسلمين في الأرض المقدسة، إلاّ أن البعض منهم وجد لهذه الحروب هدفاً مباشراً ينفذه في بلاده، وهو قتل اليهود، وقد انحصرت مذابح اليهود في ألمانيا بشكل مميز، إذ أنها لم تنتشر في فرنسا، أو في إيطاليا أو في بيزنطة، ولم يحدث أي اضطهاد لليهود في تلك البلدان، فقد تُركت ثلاث فرق ألمانية تحت قيادة إيميش صاحب ليسينجين، وفولكمار، وجوتشولك للعمل على قتل الآلاف من اليهود «تحت راية المسيح»، ولم ينس اليهود هذه المذابح لمدة قرون قادمة، ولا تزال كثير من الصلوات اليهودية، تذكر هذه الكوابيس الجماعية، ولا مندوحة لنا عن القول أن هنري الرابع الذي برهن عن صداقته لرعاياه من اليهود قبل اندلاع الحروب الصليبية، أرسل تحذيرات لأتباعه أن يمتنعوا عن إراقة الدماء، ذلك الأمر الذي توقعه، ولكن ثبت أن هذه التحذيرات كانت عبثاً، شأن تحذيرات يهود روان الذين أرسلوا رسلاً إلى إخوانهم في حوض الراين، ولكن سبق السيف العذل، فقد انقضت تلك القطعان المقدسة الغاضبة على الجماعات اليهودية القديمة، وكانت وسائل الدفاع الوحيدة هي دفع الرشاوي والأموال أملاً في منع الكارثة، فقد أرسل اليهود خمسمائة من القطع الفضية إلى غودفري صاحب بوليون، وهو أحد القادة العسكريين البارزين، وقبلت الرشوة، ولكن النقود صُرفت كما هي العادة دون أية فائدة أو جدوى.

واستهلت الحملة الصليبية في ألمانيا كما رأينا، بهجوم على اليهود في مسباير في 3 أيار عام 1096م، ولكن أسقف المدينة (الذي كان قد استلم مقادير كبيرة من الأموال كرشوة) قرر أن يحمي اليهود المقيمين في أسقفيته، إنما لم يكن لجميع اليهود وقت كاف للوصول إلى الملجأ المخصص لهم، ولهذا قتل الكثيرون في كمائن أعدت لهم في طريقهم إلى حاميهم، وبما أنهم رفضوا التحول إلى المسيحية، فقد ذُبحوا جميعهم، وقد عمدت إحدى اليهوديات إلى الانتحار للتخلص من انتهاك عرضها على يد جماعة من الصليبيين الأتقياء، التي كان أفرادها يضعون علامة الصليب على دروعهم، هذا وقد تحركت الحملة الصليبية الألمانية في 18 أيار من ورمس حيث اتهمت الجماعات اليهودية بتسميم آبار المياه، وكانت هذه الجماعات قد بنت لنفسها كنيساً طبقاً للطراز الرومانسيكي عام 1036م، (وبقي هذا الكنيس قائماً حتى قام صليبيو هتلر بنسفه عام 1938)، ولهذا قتل المئات منهم، وهرب خمسمائة إلى قصر الأسقف، ولكن خاب أملهم عندما فتحت أبواب القصر بالقوة، وقُتلوا جميعاً بشكل بائس، وبعد خمسة أيام وصل تلاميذ المسيح (أمير السلام) إلى ميانس حيث أمر روثارد أسقف هذه المدينة بإقفال أبوابها في وجوههم، هذا وظهرت جماعة من اليهود وطلبت الرحمة من الصليبيين ودفعت سبع أوقيات من الذهب إلى إيميش، وقد قُبلت هذه النقود كالعادة، ووعِد اليهود بالحماية كالعادة ولكن حُنث بالوعد كالعادة، هذا وقد قام أهل المدينة الأتقياء في ميانس بفتح أبواب المدينة من الداخل، لكن اليهود الذين كانوا يرتجفون، وهم في قصر الأسقف تأكدوا من حماية الأسقف لهم، وعندما أشعل الصليبيون النار في قصر الأسقف هرب هذا الأسقف الطيب تاركاً اليهود تحت رحمة الصليبيين، وهكذا هلكوا جميعاً، وكان عددهم يربو على الألف، وقد عمد الرباني اليهودي كالونيموس في محاولة يائسة إلى إجبار الأسقف للالتزام بوعده بحماية اليهود فاستل سكيناً بيده، ولكن ذلك لم يُجد نفعاً، ولا حاجة لنا للقول أنه قُتل مع جميع أبناء جلدته، وعندما انتقل هؤلاء القتلة إلى كولون، حيث كان اليهود قد بنوا أول

كنيس لهم عام 324م، لم يجدوا أي يهودي فيها، وذلك لأن اليهود التجأوا إلى بيوت في القرى المجاورة حول كولون، حيث استقبلهم المسيحيون الطيبون وقدموا لهم الملجأ والحماية.

إن تكرار ذكر الحوادث التي تلت، يبدو مملاً، وعلى وتيرة واحدة، ففي تريز، وفي الأول من حزيران قذفت جماعة إيميش باليهود إلى النهر، وفي ميتز ذبحوا جميع اليهود عن بكرة أبيهم، وابتداءً من 24 حزيران حتى 27 حزيران انشغل الصليبيون في أراضي الموزيل، وقد أُبيد اليهود الموجودون في نيوس وإيللير وإكزانتين و «يفلنج شوفن»، هذا وقد زحف فولكمار، وهو القائد الألماني الثاني إلى براغ، وذبح جميع اليهود هناك (حيث عاش جماعة من اليهود هناك من قديم الزمان)، حيث كانت توجد الألت نيوسكول الشهيرة في العصور الوسطى (لقد كان قسم منها رومانسيكي، والآخر قوطي الطراز) ولا تزال المقبرة القديمة موجودة هناك، وأما القائد جو تشولك، وهو ثالث الأبطال الألمان، فقد ذبح اليهود في راتسبون في الوقت نفسه، ولحسن الحظ وجدت هذه الفرق الثلاث من يقاومها ويتصدى لها، إذ عندما زحفت هذه الفرق خلال سهول هنغاريا، ممارسة أعمال السلب والنهب والاغتصاب في طريقها إلى القسطنطينية، حيث تقرر أن يلتقي هؤلاء مع الصليبيين القادمين من البلدان الأخرى، ليتوجهوا معاً إلى فلسطين، هنالك في هنغاريا كانوا يأملون بإجراء مذابح جديدة بين اليهود، والحقيقة أنه حتى هذا الوقت لم يصادفوا أية مقاومة سواء من اليهود أم من المسيحيين، ولكن عندما وصل أولهم، وهو جو تشولك إلى هنغاريا، قابله مواطنون مسلحون أشداء، وأبيدوا عن بكرة أبيهم، ولم ينج من الموت أي صليبي من هؤلاء، ثم وصل إيميش الذي لقي المصير نفسه هو وجميع رجاله، وقد أثر إخفاق وانهيار حملة إيميش تأثيراً عميقاً في العالم المسيحي في أوروبا الغربية، وأما بقية المسيحيين المؤمنين فقد عدّوا هذا الإخفاق علامة على غضب الرب في علاه، وعقابه لهؤلاء الذين اضطهدوا اليهود.

وعلى الرغم من المعمعة والإخفاق الذي مني به الألمان، إلاّ أن القوة الصليبية العامة نجحت في الاستيلاء على القدس واحتلال فلسطين، (ومات يهود هناك، إنما ماتوا على شكل أبطال مدافعين عن كل من حيفا ومدينة القدس) وهكذا توصلت الحملة الصليبية الأولى إلى إحراز النجاح والظفر في النهاية، إلاّ أن نبأ النصر استغرق عدة أشهر للوصول إلى أوربان، وذلك لما كانت عليه طرق المواصلات من البؤس في تلك الأيام، وعندما وصلت أخبار النصر لم يستقبلها الناس بالحماس المتوقع، لأن روما لم تهتم بالحملات الصليبية، فلم يكن هنالك فرسان في المدينة، وبقي السكان بمعزل عن فعل هذه الحوادث الدنيوية، ولم تتأثر جماعة اليهود في روما بتلك الحوادث، هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن أوربان الذي بدأ هذه الحروب الصليبية في كلير مونت، قد عاش ليرى تنفيذ أول فكرة روحانية هدفت إلى اتحاد المسيحيين في حرب شاملة للدفاع عن المُثل المسيحية العليا، وهي تلك الفكرة التي كانت تدغدغ أحلام سيده العظيم غريغوري السابع، وساءه أن يرى تلك الفكرة قد تلطخت وانحرفت عن أهدافها، وقد قضى أوربان أواخر أيامه مع آل بيرليوني، وتوفي في 24 آب عام 1098م، وقبل وفاته بعام واحد كان آل بيرليوني قد استعادوا سيادتهم على كنيسة سانت انجيلو، وكان من الأنسب لو مات البابا العظيم أوربان في المبنى نفسه الذي اختبأ به غريغوري السابع خوفاً من أعدائه تحت حماية أسرته، ولكن الذي حدث هو أنه مات في بيت آل بيرليوني، وقد اندثر هذا البيت، ولم يعد له وجود الآن، ولكن هناك وفي ساحة رحبة بين الكنيسة، ومسرح مارسيلوس بعض الأعمدة القديمة، ومن المحتمل أن تكون هذه الأعمدة جزء من بيت آل بيرليوني، وقد سارت جنازة أوربان يتبعها بطانته إلى مثواها الأخير ببطء، خلال حي تراستفيري حتى وصلت إلى كنيسة الرسول بطرس حيث ووري الثرى هناك.

لقد تحسنت أحوال آل بيرليوني في هذا الوقت، فلم يعودوا يُعدون أعضاء غير رسميين في الكوريا، كما أنهم لم يعودوا مجرد ممولين للبابا، إذ أن إسهاماتهم

ومشاركاتهم المادية أصبحت في هذا الوقت أمراً مقرراً مسلماً بصحته ، وأصبحت قلاعهم قصوراً ومنتجعات يتقاطر إليها الاكليروس والنبلاء ، أي أصبحت صالونات روما في العصر الوسيط ، وأصبح آل بيرليوني أدوات دفع الشر عن البابوات والأمناء على أسرارهم ، وعندها انتخب رينير وهو كاردينال كليمنتي خلفاً لأوربان باسم باسكال الثاني (1099 – 1118م) أصبح صديقه الحميم ، ومستشاره بطرس ليونيس ممثلاً دائماً له أثناء غيابه الطويل الأمد عن روما ، هذا وقد اكتسب آل بيرليوني بشكل آلي اسم الأوصياء على روما ، ولهذا فقد كان تعيينه مجرد إجراء رسمي بسيط يتوقعه كل إنسان .

لقد ورث باسكال المشاكل القديمة التي شغلت غريغوري السابع ، وهي العلاقة ما بين البابا والملك ، وبصورة خاصة قضية تنصيب الأساقفة ، تلك النقطة التي بقيت دونما حل ، هذا وقد خلف هنري الرابع ابنه هنري الخامس ، الذي لم يكن ينوي أن يستسلم للبابوية ، بل بالعكس كان يقصد الزحف على روما لاستخدام كل نفوذه وسلطته للتتويج بالقوة ، على الرغم من أن جثة والده الذي كان لا يزال تحت الحرمان ، لم تزل ملقاة دون دفن في إحدى كاتدرائيات ألمانيا ، تنتظر أن يأذن البابا بدفنها حسب الطقوس المسيحية ، ولذلك وضح للجميع أن هنالك دراما جديدة على وشك أن تُمثل في روما ، ولكي نفهم أهميتها علينا أن ندرك عاملين هامين : الأول هو القوة العظمى الكامنة في عملية التتويج ذاتها ، تلك العملية الصوفية الروحانية التأملية ، التي كانت تتم في كنيسة الرسول بطرس مع أنه من الصعب سبر أبعادها في هذه الأيام ، إذ طالما قد أريقت الدماء حول هذه القضية قبل زمن باسكال ، ولسوف تراق دماء أخرى في المستقبل ، أما العامل الثاني فهو أن السلطة السياسية في روما في هذا الوقت كانت في أيدي الأسر النبيلة ، وعلى الأخص آل بيرليوني الذين كانوا يرمزون للسلطة الأرستقراطية ، وقد أصبح البابا يعتمد في سلطته العسكرية اعتماداً كلياً على مليشيات النبلاء التي تدعمها تحالفاتهم مع النورمان ، وكان النبلاء يوقعون على الاتفاقيات التي يعقدها البابا مع السلطات بما فيه الملوك ، ومن هؤلاء النبلاء بطرس

ليونيس، وليون، وبطرس ليونيس الثاني، وقد قُدر لهذا الأخير أن يكون آخر بابا من أسرة بيرليوني، لهذا عندما رحل باسكال إلى فرنسا ليؤمن مساعدة ملكها في نضاله (أخفق في هذا المسعى) فليس من المستغرب أن نجده يُنيب عنه للحكم في غيابه بطرس ليونيس كما فعل فيما بعد عندما قضى بضعة أشهر في بنيغنتو.

في عام 1110 بدأ هنري يتحرك ضد روما على رأس جيشٍ قوامه ثلاثون ألف فارس من الألمان، وألوف آخرون من المرتزقة، ولذلك ولإحباط أي احتمال لاستعمال العنف من جديد، تقرر العمل على إحلال تسوية سلمية يُتوج هنري من خلالها بشكل مشرف، وقد اجتمع المفاوضون في كنيسة سانتا ماريا في توري، ليس بعيداً عن كنيسة الرسول بطرس، وكان بطرس بيرليوني هو ممثل البابا في هذه المفاوضات، وإن توقيع بطرس بيرليوني على هذه التسوية لا يدل على مهارته الدبلوماسية، ولكن موافقة الملك عليها تدل على رغبته الأكيدة وتهافته على التاج، أو على الأقل تهافته على نيل بركة البابا، وطبقاً لهذا السجل الغريب تقرر أن يعيد جميع الأساقفة الذين عينهم الملك (وهذا ينطبق على أساقفة ألمانيا، وكثير من أساقفة إيطاليا) كل الأملاك غير المنقولة من الأراضي والممتلكات الأخرى، التي استلموها من يد الملك، وأن يعيشوا من هذا الوقت فصاعدا على موارد ضئيلة يحصلون عليها من ضريبة العشر[1] التي يدفعها الشعب، وهذا يعني أن يُجبر الأساقفة الذين كانوا يحيون حياة البذخ كالنبلاء على الانحطاط اجتماعياً واقتصادياً، وأن يصبحوا من رجال الاكليروس الشحاذين، ومع أن هذا الوضع مطابق لتعاليم المسيحية المثالية، لنذر الرهبنة وقواعد المسيحية الأولى القديمة للعيش في حالة فقر، إلاّ أنها لم تكن حالة يقبلها رجال الدين المرفهين، وزيادة على ذلك كان على الأساقفة أن يتخلوا عن جميع حقوقهم ليس بالتملك فحسب، بل جميع الامتيازات الدنيوية التي اكتسبوها من قبل وتمتعوا بها، مثل حقوقهم في الأسواق،

(1) ضريبة العشر: تقضي بدفع عُشر الغلال والمال إلى الكنيسة.

والنظر في بعض الدعاوي، والفصل بها، وحق ضرب النقود، وبالاختصار كانوا مجبرين على أن يتخلوا عن امتيازات الأكليروس الكبيرة، التي كانت تؤمن لهم القوة وحياة الرخاء والبذخ، أما الملك فكان عليه أن يعد وعداً صادقاً أن يتخلى إلى الأبد عن المطالبة بتنصيب الأساقفة، وكان توقيع بطرس بيرليوني قمين بموافقة البابا عليه، وقد أقسم الملك ونبلاؤه بشكل وقور – وألسنتهم ملجومة – أن يحترموا هذه الاتفاقية، وتمت كتابة وثيقتين منفصلتين بعد بذل جهود مضنية إحداهما تحتوي على وعد الملك، والأخرى تعهد البابا، وعندها تحركت الجيوش باتجاه روما.

وصلت الرسل تبشر النبلاء وجموع الشعب والبابا بالاتفاق المشرف، الذي حصل، واستعد الناس لإقامة الحفلات التقليدية الخاصة بالتتويج، وحالما وصل الملك إلى المدينة ممتطياً صهوة جواده تحيط به حاشية كثيرة العدد، فخمة باهرة للأبصار، تتألف من النبلاء وجميع الرتب الكهنوتية، إذا بالشعب يصرخ ويحييه تحية السرور والفرح (لقد اختار القديس بطرس الملك هنري)، ومن نافلة القول أن نؤكد إخلاص الشعب وحماسه خصوصاً إذا كانت الأموال قد وزعت عليه كالعادة، وبسخاء، توقف الملك عند جسر الرسول بطرس، وأقسم بجلال ووقار أن يحترم قوانين روما، (وكانت هذه الوقفة إحدى التقاليد المرعية) ثم مر بمجموعات تمثل الشعب المستنير في روما، ويقال أنه استقبل الإغريقيين بشيء من الغطرسة، وأصغى بابتسامة احتقار لأقوال اليهود التي حفظوها عن ظهر قلب، وحالما دخل المدينة الليونية حيته جوقة الرهبان والراهبات، وأفرادها يحملون الشموع في أيديهم ويرتلون ترتيلة الاستقبال (اختار القديس بطرس الملك هنري) وعلى الرغم من الحفاوة التي قوبل بها الملك هنري، إلاّ أنه لم يَخل الأمر من بعض المضايقات والمتاعب، الأمر الذي اضطر هنري قبل أن يدخل عتبة كنيسة الرسول بطرس أن يرسل بعض رجال الخدمة السرية إلى الكنيسة، وأمر عدة وحدات من الجيش باحتلال وحراسة الكنيسة أثناء قدوم هنري.

تبع ذلك برنامج هنري ثم حمام الدم، فقد أجلس كل من البابا والملك على عرشه، وكل منهما يحمل مخطوطة ملفوفة تحتوي على الاتفاقية، وعندما طلب البابا من الملك أن يثبت هذا العقد الذي لم يوقعه بعد، طلب الملك أن يسمح له بالانسحاب ليجتمع مع النبلاء الألمان ورجال الدين للمشاورة، وهكذا زال جلال تلك المناسبة وبدأ اللغط والصخب داخل الكنيسة وخارجها، مما طغى على صوت البابا وهو يعلن أنه سوف لن يتوج الملك، ما لم يوقع الوثيقة، وقد كان هذا القول فوق احتمال الألمان، الذين عرف عنهم تحللهم من الإثم، وعدم انضباطهم عندما يشعرون بتأخير في مطالبهم الشرعية، ولذلك قرروا حل هذه المشكلة المتعبة بشدة وصرامة، فصاحوا يكفينا الانتظار، وكفانا كلاماً، إن سيدنا يرغب أن يتوج الآن دونما لحظة انتظار، كما توج شارلمان، ولويس، وهنا بدأ الاكليروس في الاحتفال بالقداس، إما لتخفيف حدة توتر الشعب الهائج، أو لتأخير اتخاذ القرار الحاسم، ومرت دقائق ورفع القربان المقدس فوق رؤوس جموع المصلين مما أجبر الجميع على الركوع، وبعدها انتشرت بين الجموع همسات تقول أن سيدهم هنري قد أصبح سجيناً في المبنى المجاور لكنيسة الرسول بطرس، وهنا استل الجنود السيوف وأحاطوا بالمذبح فانسحب البابا ومعه ستة عشر كردينالاً واختفوا من خلال باب سري جانبي في الوقت المناسب قبل أن يسود الهرج والمرج، وقد أعملت السيوف في رقاب رجال الدين والمصلين فقتل من قتل، وترك الجرحى ينزفون على المذبح، وفي جميع أنحاء الكنيسة ونهبت الكاتدرائية، وهنا هرب اثنان من الأساقفة، وذهبا رأساً إلى قلعة سانت انجيلو معقل آل بيرليوني وسرعان ما وصل الخبر إلى المليشيا وعامة الشعب.

وفي منتصف الليل بدأ زحف الرومان باتجاه كنيسة القديس بطرس، لكن هنري استطاع الهرب وهو في ثياب النوم، فامتطى جواداً وهرب وهو شاهر سيفه بعد أن قتل خمسة رجال اعترضوا سبيله، أما البابا ومعه الستة عشر كردينالاً فقد أجبروا على ركوب عربات، وأخذوا تحت الحفظ وظلوا مدة واحد وستين يوماً سجناء لدى الملك هنري في قلعة

تروبيكم، وأخيراً وتحت التهديد بالموت (الأمر الذي لم يكن ليرهب غريغوري السابع في مثل هذا الموقف) انهار البابا باسكال، فوقع اتفاقية جديدة حصلت بها الموافقة على جميع طلبات الملك، وقد حصل وعد بإجراء تتويج جديد، ومنح الملك حق تنصيب الأساقفة، مع احترام حقوق روما بمفهوم ضمني، وكانت نصوص هذه الوثيقة غاية في الإذلال للبابا، وهذا جزء من النص: «لقد قضت إرادة الرب وحكمته، أن يرتبط إقليمكم ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة، كما أن أسلافكم بما لهم من السلطة والحكمة، قد حصلوا على تاج مدينة روما، وشرف لقب الإمبراطور» هذا وكان أحد بنود الاتفاق ينص على دفن جثة الملك هنري الرابع، حسب الطقوس المسيحية، وبموجبها أطلق سراح البابا الأسير.

لقد كان هنري الخامس حكيماً، فلم يقرر العودة إلى روما للتتويج، بل حدث التتويج في ساحة مفتوحة خارج المدينة، وعندما رجع باسكال إلى روما حياه الجمهور تحية شهيد، ولكن كان على بطرس بيرليوني أن يدرك حالاً أن دوره المأساوي في هذه المفاوضات لا يمكن أن يُغتفر، فهذا هو قدر أسرته، كما كان نصيب المتحولين الآخرين من اليهود، ففي أيام الحظ وبحبوحة العيش كان الناس يقبلونهم لا بل حتى يتسامحون معهم، وأما في أيام الذل والانكسار فقد كانوا يجبرون أن يتذكروا أنهم عبرانيون آتون من الغيتو اليهودي لا أكثر ولا أقل، وأن عليهم أن يبرهنوا ويثبتوا طهارتهم حتى الجيل الثالث أو الرابع، وإلاّ فإن غضب الشعب سوف يحل عليهم، وعندها سوف يذكرهم الناس بذلك اليوم من أيام عيد الفصح عام 1030م، أي قبل جيلين من هذا التاريخ الذي نحن بصدده عندما تحول أحد اليهود المدعو باروخ إلى الديانة المسيحية، وأصبح اسمه بندكت المسيحي، زد على ذلك أن وجوههم الشرقية التي كان لونها بلون الزيت تفضح أصلهم، ومع أنهم كانوا روماناً منذ الأزل إلاّ أنهم عُدّوا غرباء.

ومرة أخرى استكثروا عليهم ماء المعمدان في كنيسة القديسة مريم في تراستفيري، ولم تنفع الثروة ولا السلطة ولا التقى والورع في غسل ذلك العار الذي حملوه كابراً عن كابر، من جراء انتمائهم اليهودي منذ البداية مع أنهم قد قاسوا الأمرين حتى نسوه.

ومع هذا وعندما توفي حاكم روما واقترحت الأسر النبيلة الإمبراطورية مرشحاً لها ليخلفه، عمد آل بيرليوني إلى ترشيح أحد أبنائهم، وهو شاب ذكي لامع صغير السن، لكنه متغطرس ومتعجرف جداً، وكان منصب حاكم روما منصباً تحلم به الأسر النبيلة في روما، أما الحزب الإمبراطوري فقد عدّ هذا المنصب رمزاً لسلطته الخاصة ما دام أن الإمبراطور هو الذي يثبت تنصيب هذا الحاكم بمنحه الشارة الإمبراطورية، وهي سيف ونسر، أي أنه ممثل الإمبراطور في روما، (كان هنري قد رجع إلى وطنه) ومع أن موافقة البابا كانت واردة، إلاّ أنها كانت شكلية، وبالنسبة للحزب الإمبراطوري فقد عدّ هذا الحزب أن هذه هي الفرصة السانحة يجب ألا تفوت للحصول على السلطة، أما بالنسبة لبطرس ليونيس فقد عدّها فرصة أيضاً لدعم السلطة البابوية، عند انتخاب حاكم بيرليوني، وحدث في يوم عيد الفصح أن كان البابا يحتفل بإقامة القداس في كنيسة اللاتيران في روما، عندما اندفعت جماعة من الغوغاء الذين اشتراهم وحرضهم الحزب الإمبراطوري، وفي مقدمتهم مرشحهم الذي كان يرتدي الملابس الحريرية المخصصة بالحاكم، وطلبوا موافقة البابا وتثبيته لتعيين هذا المرشح، عندها حاول البابا تأجيل البت بالأمر، وذلك لأن ميوله كانت مع آل بيرليوني أصدقائه المخلصين وحماته، ولكن الغوغاء هددوا بمداهمة قصر اللاتيران واقتحامه، فانسحب البابا الذي لم يعرف عنه أنه كان محارباً، وعندها تحول الرعاع إلى تراستفيري وأخذوا يقذفون أبراج آل بيرليوني فتحطمت بعض النوافذ وكُسرت بعض الأسيجة، لكن آل بيرليوني كانوا قد انسحبوا إلى قلعتهم الرئيسة، في مسرح مارسيلوس، وقد وقف الرعاع وقد بدا عجزهم وهم يحدقون بالبناء الضخم، وأدركوا عدم جدوى الهجوم على صرحٍ يظهر حتى في هذه الأيام في غاية المناعة، ولا يمكن اقتحامه، ولكنهم قذفوا الصرح ببعض الحجارة مما شفى بعض غليلهم، ثم انصرفوا إلى بيوتهم بعد أن ملأوا الجو صراخاً وشتماً للبارونات اليهود، ولكن هذا لم يؤثر على آل بيرليوني في كثير أو قليل، وقد أظهر آل بيرليوني بعض الحكمة والتروي فلم يرسلوا المليشيا في أثر هذه الحشود، وبلغ بهم الذكاء أن سحبوا مرشحهم أيضاً.

ولم تساهم حوادث السنة التالية في كثير أو قليل في تخفيف حدة التوتر والفوضى المستحكمة، والتي أصبحت من مستلزمات الحياة النظامية في روما، وبعد أن أجهضت حركة آل بيرليوني بتنصيب حاكم من رجالهم، توفي البابا باسكال أثناء إحدى حوادث الشغب في الشوارع التي كانت كثيرة الحدوث في تلك الأيام، وتبعته ماتيلدا الحليفة الوفية المخلصة لحركة الإصلاح البابوي والمدافعة عن غريغوري السابع، وصديقة آل بيرليوني، وقد تقلص نشاطها قُبيل وفاتها وذلك بسبب تغير الأحداث، ولكنها كانت دوماً على تمام الثقة بأن حركة الإصلاح سوف تفوز في النهاية مهما خسرت من معارك، وهكذا أغمضت عينا تلك المرأة الرائعة المحاربة البطلة، وهي في السبعين من العمر، (وقد أوصت بجميع ثروتها وأملاكها للكوريا، ولكن وصيتها كانت غير واضحة لذلك فقد سببت تورط الكنيسة في التقاضي أمام المحاكم ردحاً من الزمن طيلة أجيال طويلة)، ولم يكن أمام البابا الجديد غلاسيوس الثاني (1118 – 1119م) سوى الصعوبات، إذ أن تراص وتنظيم القوى قد اختل وتغيّر في ذلك الوقت، فقد تبدل موقف آل فرانجيباني، وهم الذين كانوا رفقاء السلاح مع آل بيرليوني مدة أجيال وأجيال، ذلك أنهم أصبحوا الآن مشايعين للحزب الإمبراطوري، وعندما خُطف البابا وقيدت حريته، وحمل إلى برج سينسيوس فرانجيباني، هرع بطرس ليونيس لنجدته ودعا جماعته في تراستفيري لحمل السلاح، وحرر البابا وأطلق سراحه، هذا وقد أصبحت تراستفيري والجزيرة بجانبها مدينة داخل مدينة في هذا الوقت، وتتمتع بالحكم الذاتي، ولها تحصيناتها الخاصة بها، وأهلوها المتعصبون لآل بيرليوني، وعندما عاد هنري الخامس إلى روما هرب غيلاسيوس إلى فرنسا يرافقه بطرس ليوني، وقد مات في دير كلوني، ولم يتمتع بالحكم الحقيقي في تلك السنة اليتيمة التي حكمها، فالسجن والنضال والنفي كان قدره، وأما خلفه وهو كاليكستوس الثاني (1119 – 1124م) فقد كان أحد أقرباء ملك فرنسا، وقد انتخب في جزيرة آل بيرليوني، حيث تجمع النبلاء في قلعة تلك الأسرة تحت زعامة آل بيرليوني دون منازع،

وقد ثبت هؤلاء النبلاء انتخابه، ولهذا لم ينس لهم كاليكستوس هذا الجميل، ويعتقد البعض أن موقفه الكريم وإحسانه لليهود في روما، وتأمين حريتهم في التجارة والعبادة، لم يكن إلاّ نتيجة اتفاق مسبق مع آل بيرليوني، الذين كانوا يتعاطفون مع أقربائهم السالفين.

ولكن اهتمامات كاليكستوس الرئيسة اتجهت إلى نواحٍ أخرى، فقد صدف أن كان قدره أن تنتهي الخلافات بشأن قضية تنصيب الأساقفة على يديه، فقد أعلن عن عزمه على حل هذا الخلاف أمام أربعمائة وأربعة وعشرين أسقفاً في مجمع عقد في ريمس، حيث ارتفع ذلك البابا بقامته المديدة وهيبته الملكية، وسيطر على الموقف في ذلك المجمع، ثم رجع إلى روما (حيث كان آل بيرليوني قد فتحوا كنيسة انجيلو وكنيسة الرسول بطرس بمفتاح من الذهب، وأعلن كاليكستوس علناً أن بطرس ليونيس وإخوته هم من أخلص مؤيديه) واستمر في سعيه لصياغة آخر اللمسات على مشروع حل النزاع بين الكنيسة والدولة، وأخيراً وفي عام 1122 أعلن ميثاق ورمس في أروع اجتماع من الاجتماعات الكنسية في ذلك القرن، حيث تقرر إجراء التسوية العظيمة، بوضع مشكلة تنصيب الأساقفة على الرف، وطبقاً لبنود هذا الاتفاق عدل هنري وحلفاؤه عن المطالبة بحق تنصيب الأساقفة، ورؤساء الأديرة، ولكن احتفظوا بحق عدم الموافقة على انتخاب مرشحي البابا الذين لا يروقون لهم، وهكذا انتهى ذلك النضال المرير الذي سيطر على الأحداث خلال العصور الوسطى.

وتوفي كاليكستوس عام 1134 بعد إصابته بالحمى الرومانية قبيل عيد الميلاد، في ذلك العام، وقد مات قرير العين لعلمه أنه قد حل الخلاف الذي كان مستحكماً بين البابا والإمبراطور، فالسلم الجديد لم يكن مؤسساً على المعادلة الغريغورية القديمة، وهي سيادة البابوية، إذ لم يعد لهذه النظرية أي مسوغ، فكلا القوتين: قوة البابا وقوة الإمبراطور قد أصبحت أمراً واقعاً يجب الاعتراف به فعلاً، فلم تعد القضية قضية منع متبادل، بل احترام

متبادل، وقد تمت هذه القضية في مدينة ورمس، وهي من مدن الراين، وفي الكنيسة الرومانسيكية التي كان قد تم بناؤها قبل بضع سنوات، ورافق البابا لحضور ذلك المجمع بطرس ليونيس، ولربما مَرَّ بكنيس الجماعة اليهودية القديمة في المدينة، وهو المبني على الطراز الرومانسيكي والذي أضيف له معبد صغير على الطراز القوطي، أفلم يتوقف يا ترى ليتذكر أنه على بعد قليل من هذا المكان، وفي كولون حيث كان سلفه يوحنا جراتيان بيرليوني البابا غريغوري السادس قد قضى سنتين في المنفى بصحبة قريبه هيلد براند، ألم يلاحظ يا ترى قبور أولئك اليهود الذي ذبحوا دونما شفقة أو رحمة أثناء الحروب الصليبية، قبل حوالي ربع قرن؟ فأقرباء الضحايا كانوا لا يزالون على قيد الحياة، لكن من المحتمل أنهم لم يعرفوا الكثير ولم يهتموا اهتماماً جدياً بآل بيرليوني الذين أداروا ظهورهم لشعبهم، وفضلوا استلام مقاليد الحكم، على تحمل الآلام والعذاب.